# الفصل الخامس

# فروبل

# الفصل الخامس

* حياة الطفولة .
* طور التكوين .
* بين التعليم والتعلم .
* فروبل الرجل .
* تربية الإنسان .

الأسس العامة .

الإنسان فى بواكير الطفولة .

خصائص الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة

فى رياض الأطفال

* فلسفة فروبل التربوية .

## ١- حياة الطفل

قد يشوق فرد أن يسوم غيره ألوان العذاب التى قاساها ، وهذا شخص ينتقم لنفسه فى شخص غيره ، وقد يتألم فرد من شىء ويشقى من آثاره فيدفعه حبه للخير إلى تخليص غيره مما قاساه . وهذا شخص يحب لغيره ما يحبه لنفسه ، هو خير نزاع إلى الطيب من القول والعمل ، له قلب أبيض ونفس سمحة وأمثاله لازمون للمجتمع السليم القويم . أما ذلك الصنف الأول فقلبه غليظ ونفسه شريرة وندعو الله أن يخلص العالم منهم .

وفروبل ، رجلنا الذى نتحدث عنه شخص خيِّر ، ذو قلب أبيض .

فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل عام ١٧٨٢ أعلن قسيس فى قرية أوبروبزباخ Oberweissbach إحدى قرى بروسيا أن الله منحه طفلا . ذكرا ، فأقبل القوم يهنئون راعيهم الدينى جوهان يعقوب فروبل Johann Jacob Froebel وعندما سألوه عن اسم ابنه ، أخبرهم بأنه تخير له اسم فردريك Friedrich . ولم يعلم الأب أن ابنه هذا سيترك اسما خالدا فى التاريخ ، ولعل خيرا فى هذا ، فإنه لم يعتن بتربيته كما يجب أو كما ينتظر من الأب ومن رجل الدين بالذات ، فقاسى الطفل المسكين ، على أن له بعض العذر مما يخفف عنه شيئا من الذنب ، فقد كان دائب العمل ، عليه مسئوليات منصبه ومستلزماته مما لم يتح له الفرصة لتأدية واجبه الأبوى . فكان على الطفل أن يحرم العطف بعد أن تركته أمه إلى العالم الآخر ، وكان عمره تسعة أشهر .

نعم ، تسعة أشهر فقط ، يتيم من الأم ، بعيد عن الأب ، وهو فى أشد الحاجة إليهما ، إلى صدر حنون وإلى كلمة ناعمة ومناجاة محببة وإلى ابتسامات مشرقة ، كل هذا حرم منه الطفل المسكين .

---

(١١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب : سعد مرسى أحمد ، فروبل ، مؤسس رياض الأطفال وفلسفته فى التربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٢ .

وكيف أعبر أنا عن شعوره واحساساته وأنا لست هو ؟ لأتركه إذن يقص قصة طفولته كما كتبها وكما سردها ، سأنقلها أمينا على أفكاره وكلماته ، ومحاولا أن أعبر عن روحه ونفسيته .

« ..... لقد تركت تحت رعاية الخدم ، ولكن هؤلاء انتهزوا فرصة انهماك أبى فى عمله ، فأهملوا أمرى وتركونى ، لحسن حظى ، تحت رعاية اخوتى . أما أبى ، فهو أب بالاسم فقط وأعترف بأننى حييت بعيدا عنه وهو غريب عنى ، فكنت بذلك فى الواقع لا أم لى ولا أب . وحين بلغت الرابعة من عمرى تزوج أبى ، فأصبحت لى أم أخرى ، وكنت فى شوق زائد إلى أم ترعانى وتحنو على . كنت متلهفا إلى هذا الحب الأموى الذى حرمت منه ولم اقترف ذنبا ، ولذلك احسست بخير قريب ، وبدأت أعى ما حولى ، فعندما رأيت زوجة أبى هرعت إليها مقدما لها فى سذاجة وبراءة الطفولة كل ما استطيع من حب طفل لأمه . وعندما بادلنى هذا الملاك نفس الشعور أحسست بأن أياما سعيدة فى انتظارى ، فبدأت ارتشف قطرات الراحة والعطف ، وكم كان مذاقها شهيا لذيذا .

غير أن أيام السعادة لاتدوم ، فصحوت من هذا الحلم الجميل عندما ولد لها طفل حولت إليه كل عطفها وحنانها ، ومرة أخرى وجدت نفسى دون أم ودون أب بل زاد الأمر سوءا .

وهكذا وجد الحزن والأسى مكانا مريحا فى نفسى . ومع كل هذا فقد صمت أذناى عن سماع أراجيف السوء التى صبها بعض من لا أخلاق لهم عسى أن أنقلب ضد زوجة أبى ولكننى تحملت القسوة والجفوة وصممت على أن أكون نبيلا كريم النفس .

كان ذهابى إلى المدرسة لأول مرة يوم اثنين ، وهناك وجدت عددا من الأطفال يرتلون بعض كلمات الكتاب المقدس فى لهجة ملؤها الخشوع والرهبة والتقديس ، وفى

الحق أن هذه اللهجة مست أوتار قلبى وهيجت مهجتى وألهبت وجدانى فاهتز لها بدنى وأحسست بإحساس غريب لذيذ كأنما قد ولدت من جديد وأن روحى تسمو فأسمو معها سموا يخلصنى من كل إحساس مقيت ، وأن نشوة تسرى فى نفسى فأستشعر الراحة والهدوء ... نعم ، كان دخول المدرسة ميلادا جديدا لحياة روحية سامية .

. . . كانت المدرسة التى ولجت بابها خاصة للبنات ، ولكننى قبلت بها بفضل مركز أبى الوطيد ، ولم أجلس مع عامة الأطفال بل بالقرب من المدرسة ، وفى فصل كان أكثر تقدما عن غيره . وكان علينا أن نحضر الصلوات أيام الآحاد ، وقد اعتدت مراقبة أبى خلال قيامه بعمله الدينى المقدس ، وكانت أعجب به ، ولكننى لم أكن أفهم كلمة واحدة من هذه العبارات العديدة التى تخرج من فمه ، فإن لغتها كانت غريبة عن إدراكى وفهمى .

ولعل من المميزات التى حبانى الله بها دقة حواسى التى كنت أحسن استغلالها فى كل مناسبة ممكنة ، غير أننى شديد الحرص فلم أخضع تحت تأثير حواسى ولم أسر حسب هواها ، بمعنى أننى لم أجعل اهتمامى مركزا فى اللذة الحسية ، ولذلك فإن الصفات المميزة لحياتى فى هذه الفترة . بل فى كل أطوار حياتى ، كانت التأمل الذاتي، وتحليل نفسى ، وتربية نفسى بنفسى . وأصبح الهدف الأساسى لعملى التعليمى هو أن يعمل الإنسان بقوة وشغف لتعليم نفسه ، وكان على أن أشجعه وأدفعه لهذا الهدف النبيل .

هذا هو إحساسى وشعورى ، وتلك هى نظرتى للأمور ، ولكن ستعجب إذا عرفت أن سلوكى كان على النقيض من معتقداتى ، كنت أشعر بشىء معين وأسلك عكسه ، ولست الملوم ، فقد ماتت أمى وأنا رضيع وأهملت تربيتى فعرفت العادات السيئة طريقها إلى نفسى ، فأخطأت كثيرا وما كنت أود الخطأ وهفوت ولم أشأ ذلك . لقد عاكستنى الظروف ، وانتصر القدر على حسن نيتى فوقفت موقف المذنب وأعمالى

تشهد ضدى ، فكنت أضطر إلى الكذب مرغما حتى أنجو من العقاب . وكم حاولت اسعاد أبى وزوجته فعملت ، ولكن للأسف لم أحسن اختيار المكان ولا الزمان ولا الأدوات فظهرت فى مظهر المخرب المدمر الذى يسعى إلى المضايقة ...

لقد حطمت العام العاشر من عمرى وما زلت أئن من الجراح التى سببها سوء المعاملة ، ومازلت أرى عوامل الشر حولى تناديني ولكننى لم أعرها التفاتا وقد علمتنى طفولتى أن الباحث عن الصدق يجد بدله الكذب وأن من يسعى إلى الاتحاد يجد التفرقة وأن المنقب عن الايمان يجد الالحاد والشك ، رأيت الخداع والنفاق والرياء ، فتألمت لهذا وشعرت بالظلم والجور ولكننى حرمت من التعبير عن ألمى فقبلت الأمور صاغرا .

زارنا فى هذه الأوقات خال لى ، وكان رجلا من رجال الدين مهيب الطلعة سمح الوجه يطيل التفكير ويحسنه ، رجل حنكته التجارب وأصقلته الخبرات فارتحت إلى وجوده بين ظهرانينا ، ويشاء الله القدير أن يجعله يلاحظ حالتى وما يحيطنى من عوامل شريرة ، ولم يتعد مرحلة الادراك والوجدان ، فعرف عنى وأحس بحالى . ولكن هذا لايكفى فى نظرى ، فارتقبت حتى وصلت منه رسالة إلى والدى يطلب منه أن يرسلنى إليه ، فلبى والدى طلبه على الفور ورحلت إليه فى مستهل عامى الحادى عشر ، إلى مدينة ستادلم Stadtllm .

ولعل أكثر الأمور التى مست شغاف قلبى ونفسى دروس الدين فى المدرسة فقد أقبلت عليها بنهم شديد وفنيت فى الاستماع إليها واستيعابها وكان يقوم بتدريسها مدرس وقور متزن أثر فى تأثيرا بالغا ، حتى أنى عندما كبرت قصصت على خالى جانبا مما كان يشرحه مدرس الدين فأبدى تعجبه منه ، بل إنه وجد فى كلامه فلسفة لايستطيع من كانوا فى مثل سنى وقتئذ استيعابها ولكننى كنت أفهمه لأننى استمعت إلى دروس مماثلة من أبى . وفى الحق أعجبت أيما إعجاب بهذا المدرس حتى أن الدموع

كانت تملأ عينىّ عندما كان يتكلم عن سيرة حياة السيد المسيح . وقد بعثت تعاليمه الدينية الدفء فى نفسى فشعرت باطمئنان لذيذ محبب . وطالما استعدت كلماته فى خلواتى وبعد الدروس .

كانت أحسن الدروس التى تعطى لنا فى المطالعة والخط والحساب والدين ، أما اللغة اللاتينية فقد كانت تدرس بطريقة مزرية ولذا لم نقبل عليها ، وقد خرجت من دراستى اللاتينية وغيرها بحقيقة لا جدال فيها وهى أن طريقة التدريس تحدد مدى الاستفادة من المادة . وكنت أميل إلى الحساب وخاصة أننى تلقيت معاونة خارجية فتقدمت تقدما محسوسا ملموسا حتى أننى أصبحت على قدم المساواة مع مدرسى . وكم دهشت وأنا فى الثالثة والعشرين من عمرى عندما زرت فردون ولم أستطع أن أحل المسائل التى كان يحلها التلاميذ ، ولعل هذا أحد العوامل المهمة التى دفعتنى إلى الانكباب على دراسة طرق بستالوتزى فى التربية . وبدأت أدرس الحساب وقتئذ من البداية مترسما خطة بستالوتزى .

أما عن الجغرافيا فلم نكن نفهم عنها شيئا ، بل إننا كنا نرددها كما يردد الببغاء كلاما يقال أمامه ، وكنا نستطيع أن نعرف مدلول الألوان على الخريطة عن ظهر قلب ، وفى الحق أن الجغرافيا الطبيعية التى درسناها لم يكن لها أى اتصال بحياتنا . أما عن اللغة الألمانية فقد كنا نتلقى توجيهات فى كتابة الخطابات وفى هجاء الكلمات ، ومما يثير الدهشة أن هجاء الكلمات لم يكن مرتبطا بأية مادة أخرى بل كان معلقا وحيدا فى الهواء . إلى جانب كل هذا تلقيت دروسا فى الغناء والعزف على البيانو ولكنها لم تثمر معى مطلقا .

اتسمت حياتى مع خالى بسمات ثلاث : التربية الخلقية الدينية الصحيحة ، ثم الحياة الحرة الطليقة التى عشتها خارج الدار التى هيأت لى مجالا حيويا للعب ، وأخيرا الهدوء الذى ساد المنزل والمعاملة الطيبة مما يسر لى أمر التحصيل الدراسى .

ولابد لى هنا من التحدث عن أمر ذى بال لكل مرب ومعلم ، ذلك هو علاقة المدرس بتلاميذه وفكرة الأطفال عن مدرسيهم . كنت أتلقى مع زملائى الدروس من مدرسين اثنين ، أحدهما على النقيض من الآخر : أحدهما جامد صارم والآخر سمح مقبول ، فأما الأول فلم تكن له سيطرة ونفوذ علينا ، فى حين أننا كنا نستجيب لأية أشارة من الثانى ، كانت أوامر الأول تذهب مع الريح فى حين أن إيماءات الثانى تجد لها صدى عميقا فى نفوسنا .

وسارت الأيام على خير وجه لايعكر صفوها شيء ، ثم بدأ أبى يفكر جديا فى مستقبلى ، وقد استبعدت فكرة الحاقى بالجامعة واكتفى بالحاق أخوى كرستوف وترجوت Christoph & Traugott إذ أن زوجة أبى وجدت أن إتمام تعليمى فيه ارهاق مالى لايستطيع أبى احتماله . وفى الحق أن أبى وزوجته لم ينظرا إلى على أننى سأكون رجلا فى المستقبل بل نظرا إلى على أننى طفل وأننى كائن لن يصبح رجلا ، بل سيظل طفلا .

اقترحت زوجة أبى عملا لى ، ولكن والدى رفضه ، وإزاء هذا التعارض فى وجهات النظر أخذ رأيى ، وكان الأجدر أن يؤخذ قبل ذلك . المهم أن أبى اعترف أخيرا بوجودى وأن من حقى أن اتخير الوظيفة التى تؤهلنى استعداداتى وميولى لها ، فأبنت له أننى أهوى الزراعة بكل ما تحويه الكلمة من معنى ، فاننى أحببت الجبل والحقل والغابة ، كما أننى علمت أن من يعمل بالزراعة لابد له من معرفة دقيقة بالهندسة ومسح الأرض . وتشاء المصادفات أن يكون لأبى صديق بلغ شأوا كبيرا فى مسح الأرض والتثمين والهندسة فاتفق أبى معه على أن أتتلمذ عليه عامين . وكنت فى الخامسة عشرة .

كان أستاذى هذا عالما فياض العلم ولكنه لم يكن يعرف كيف ينقل علمه إلى عقلى ، كما أنه شغل عنى بعمل كلف به وهو نقل الأخشاب من الغابة إلى المصانع عن

طريق النهر ، فيدفعها التيار المائى دون أن يكلف نقلها من مهدها إلى المصانع ثمنا يذكر . ولكن الله عوضنى عن هذا خيرا ، فقد كان أمامى عدد كبير من الكتب عن الهندسة وعلم الغابات فعكفت على قراءتها ، وكان لى صديق يعمل طبيبا فى القرية وقد شغف بهواية دراسة علم الأحياء وخاصة النبات ، فوجد فى ووجدت فيه زميلا لهواية واحدة ، وسرعان ما توطدت أواصر الصداقة بيننا فأعارنى بعض كتبه فى علم النبات .

وثمة حادث ترك فى نفسى أثرا ليس من السهل أن يمحى ، فقد حلت بقرية مجاورة لقريتنا فرقة تمثيلية ، فدفعنى الفضول إلى حضور إحدى حفلاتها ، فأعجبت بالتمثيل فكررت الذهاب . ولكن أبى وصف ذهابى إلى التمثيل على أنه رجس من عمل الشيطان استحق عليه أقسى ألوان العقاب ، ومع ذلك فقد آمنت فى قرارة نفسى بقيمة التمثيل .

والآن وقد مضى العامان عولت على العودة إلى أبى حيث أدرس مزيدا من الرياضيات وعلم الأحياء ، ولكن أستاذى رغب فى بقائى عاما آخر ، فغافلته وذهبت، ولكنه طعننى فى ظهرى طعنة قوية ، إذ أنه أرسل إلى أبى خطابا وضع فيه الشكوى المريرة منى .

ووجدت زوجة أبى فى إحدى عبارات أستاذى ما يؤيد فكرتها عنى وهى أننى لا أصلح لشىء ، فتمسكت بهذه العبارة لتؤكد وجهة نظرها ... وهكذا بدأت أحس بنسمات باردة تحف بى ، وبدأت أشعر بأن الدفء المحبب الذى حييت فى كنفه ينساب من يدى ، فتعترينى فشعريرة مريرة تؤلمنى وتتراقص أمام عينى عبارات أستاذى اللاذعة فى غير هوادة ، فأتوارى خجلا وأنا المظلوم ، ويخيل إلى أننى موضع الشك فى كل عمل أقوم به ، إننى لا أصلح لشىء ... ولكننى آمنت بأننى على حق وأننى صالح نافع ويجب أن أكون كذلك .... يجب ....

## ٢- طور التكوين

فى عام ١٧٩٩ ، وكان الفتى فى منتصف الثامنة عشرة من عمره ، دخل جامعة يينا ، ليرتشف رحيق العلم من منهله ، وهو يقول فى ذلك لقد درست الرياضة التطبيقية والحساب والجبر والهندسة والتعدين وعلم الأحياء والتاريخ الطبيعى والطبيعة والكيمياء والزراعة والفنون المعمارية ومسح الأرض . وتفوقف تفوقا واضحا فى بعض هذه المواد بفضل دراستى السابقة ، بل إننى وجدت فى العلوم الرياضية من السهولة مارجوت معه لو أنها كانت أكثر صعوبة وشمولا . وقد لاحظت على معظم أساتذتى فشلا فى قدرتهم على التشويق والربط ، فكنت أتلقى الحقائق منفصلة دون ارتباط بينها يجمعها ، وسا منى بعد كثير من الدروس عن واقع الحياة ولم تستهونى سوى الدروس التى كانت تدور حول الجاذبية والقوة والثقل وما إلى ذلك مما يتصل بالحياة الواقعية ...» .

ويرجع الفتى إلى أيام دراسته فى يينا الفضل فى إيمانه ببعض العقائد والأفكار فيقول إنه تعلم ورأى أن الوحدة فى الاختلاف عامل متحد فى ظواهر مختلفة ، وشاهد ارتباط القوى والعلاقات الموجودة بين الكائنات الحية وأسس الطبيعة وعلم الأحياء .

وقد انتعشت روحه المعنوية عندما وقع الاختيار عليه ليكون عضوا فى جمعية التاريخ الطبيعى . ولم يكن يسمح لغير المبرزين بالالتحاق بهذه الجمعية .

«ومضت الأيام تباعا حتى بلغت السنة الثالثة من مرحلة دراستى الجامعية . وهنا بدأت المتاعب ، فقد كان معى مبلغ من المال لايكاد يكفى نفقاتى الضرورية ، ولكن جا منى أخى ضائق الصدر مكروبا يطلب منى مساعدة مالية على أن يردها عندمايرسل له أبى نفقاته ، فأعطيته معظم ما كان معى من المال وأنا قرير العين بأن أزيل كربه وأحل أزمته . ولكن المال الذى بذلته لم يعد إلى ، فبدأت المتاعب تفد على

تباعا وقدمت أكثر من مرة إلى مجلس الجامعة ، بتهمة عدم سداد ديونى ، وفى كل مرة كنت أعد بالسداد فى أقرب فرصة ، فأرسلت إلى والدى أستعطفه ولكن استجدائى قوبل بالرفض مما أثلج صدر زوجته . وهنا لم يكن مصيرى إلا السجن وفاء لديونى المتراكمة، فنزلت ضيفا على سجن الجامعة مدة تسعة أسابيع . ولما علم أبى بذلك «تأثر» فدفع عنى الديون بعد أن تنازلت أمام مجلس الجامعة عن كل حق لى فى ميراثى منه» .

وعاد الشاب كاسف البال حسير النفس إلى بيت أبيه بعد أن اضطر إلى قطع دراسته الجامعية ، وكان قد بلغ تسعة عشر ربيعا ، ولكنه لم ييأس بل ظل الأمر يراوده ويقوى من نفسه ، وقد وجد لديه ميلا لدراسة الأدب الألمانى ، فقرأ ما كتبه شيللر وجوته ووايلاند ، وفى هذا يقول «... ولكننى لم أجد فى مكتبة أبى ما يروى ظمأى لأنها كانت تشتمل فى معظمها على كتب دينية ، وقد استهوانى من بينها كتاب خاص تحدث عن العلوم والفنون الجميلة حديثا عاما شائقا ، فكونت بفضله فكرة عامة عنها... » .

كان الشاب يعتقد أن الرجل المثقف يجب أن يلم بحقائق كثيرة فى مختلف المواد والموضوعات ، وأن يعرف شيئا عن كل شىء ، فعكف على القراءة متخذا من مذكراته مخزنا يختزن فيه المعلومات لوقت الحاجة ، واعتكف فى حجرة صغيرة وقد مال على منضدة وأمامه كتاب مفتوح يود التهامه . وكان إذا أتى عليه رفعه ليضع مكانه كتابا آخر ينقل ما فيه إلى مذكراته مهضوما مختصرا ... يقول فروبل : «...وذات يوم دخل أبى الحجرة على غير انتظار ونظر إلى هذا التل من المذكرات ثم تحول إلى وقال أننى أعبث وأن عملى هذا لاجدوى منه ، وأحمد الله أن كان أخى بالمنزل وقتذاك وقد جاء إليه بعد أن تم تعيينه فى منصب حكومى ولم يكن رأيه فى جانب أبى ....» .

وعندما ضاق الأب ذرعا بابنه الطموح ... أرسله إلى بعض أصدقائه ، ليعمل فى الزراعة .. نظر الشاب فوجد أن عليه أن يدبر أمر مستقبله ، فالتحق بوظيفة كتابية فى مصلحة الغابات ولم يجد العمل مضنيا بل على النقيض كان يسيرا ، فكان إذا فرغ منه خرج إلى المروج المجاورة يجول فيها ويملأ عينيه من المناظر الطبيعية الخلابة ، ولم يكن هنالك ما يعكر عليه صفو راحته ومتاعه .

وقد وجد الشاب إلى جانب غذائه الروحى غذاء عقليا فى المكتبة الخاصة التى كان يملكها رئيسه وينميها باستمرار بكل ما يستجد من الكتب ، وكان لابد للشاب المطلع أن يعقد أواصر الصداقة مع هذه الكتب فامتزج بها وانتفع بكثير مما فيها .

غير أن الشاب ترك عمله هذا سنة ١٨٠٣ ليلتحق بعمل آخر وجد فيه اشباعا لمؤهلاته وخبراته ، فعمل على رسم الخرائط ومسح الأرض ، وكان يأمل أن يعين ويثبت فى وظيفته ، فقدم نموذجا من عمله إلى الجهات المختصة فأعجبوا به ، ولكنهم رفضوا تثبيته فى وظيفته لأنه كان صغير السن وغريبا عن البلدة التى يعمل بها ، وهكذا شاءت المقادير أن تقف ضده مرة أخرى .

ويقول فروبل « ... وقد تعرفت فى هذه الأثناء برجل يحمل الدكتوراه فى الفلسفة وتوطدت أواصر الصداقة بيننا ، وكثيرا ما أمضينا الوقت فى مناقشة آراء شيلنج بعد أن قرأت له ، وقد لمس صديقى شغفى بالفلسفة فحدثنى ذات يوم بعد أن قمنا بزيارة لأحد معارض الفن ، حديثا عن الفلسفة والفن ، وأذكر من حديثه عبارة أثرت فى نفسى تأثيرا بالغا ، فقال : حصن نفسك ضد الفلسفة ، إنها تقودك إلى الشك والظلام ، كرس جهدك للفن الذى يهبك الحياة والسلام والمرح ... » .

ولكن الشاب كان يجد فى الفلسفة قوام حياته ، فهو شغوف بها ميال إليها ، أما الفن فإنه حقا كان يحس بلذة عميقة فى مشاهدة اللوحات والتحف الفنية ، ولكن

ذلك لم يقرب الفن إلى نفسه . وانكب بعزيمة قوية يعمل ويرسم ، ثم قدم إنتاجه فى مسح الأراضى والتخطيط إلى الجهات المختصة طالبا أن يعين فى منصب يتناسب مع كفاءته .

وكأنما قد هداه الله أخيرا إلى الطريق الصواب فلم يعتمد إلا عليه فدعاه فاستجاب الله له ولبى نداءه فانهالت عليه العروض كثيرة مغرية ، فتخير أحدها ، ولكن طلب منه أن ينتظر قليلا . فترك هذا المنصب وعمل كاتب حسابات فى ضيعة كبيرة ، وقد أحسن تسيير الأمور حتى ناداه المنصب المؤجل فرحل إليه . ولقد خرج الشاب من اقامته القصيرة بهذه الضيعة بفائدتين : إحداهما هذا المران العملى على الأمور الحسابية والتنظيم ، والثانية تمتعه بسحر الطبيعة الخلابة وتذوقه جمالها .

سافر الشاب إلى منصبه الجديد وكان قد استقر رأيه على مواصلة قراءة كتب فى الهندسة وفن البناء ، ولكن وجد أمامه بضعة كتب عن الطبيعة الإنسانية والنبوغ الإنسانى والأجناس البشرية ، فالتهمها التهاما ، ولاح له أن حياته الجديدة أمست رتيبة لا تتغير ولا تتبدل فعول على تغييرها . وكان له صديق فى مدينة فرنكفورت يكاتبه فسأله رأيه عن الحياة فى هذه المدينة ، وهل فى الإمكان أن يدرس ويقرأ عن الهندسة والبناء فيها ، ولكن أنى له بالمال وهو معدم تماما ، فأرسل إلى أخيه الأكبر يطلب العون المالى وعندما جاءه خطاب منه أمسكه بين أصابعه وقد أحجم عن فتحه وظل أمامه عدة أيام خشية أن يكون فيه ما يحطم أماله وآمانيه ، وأخيرا قطع حبل الشك وفض الخطاب فإذا بكل ما فيه منعش لآماله وأحلامه .

وهكذا يزداد إيمان الشاب بالله وقدرته . وإنه نعم المولى ونعم النصير ، بيده ملكوت كل شىء وإليه الأمر والتدبير . فقد وجدت فى صحراء حياته أخيرا الواحة الخضراء والينابيع الصافية الرقراقة التى تدعوه ليرتشف منها ما أمكنه الارتشاف ، حمد الله وشكره ولسان حاله يقول :

جاء النور بعد الظلام واليسر بعد العسر ، نعم ، ما خيب الله رجاء فرد اتجه إليه بايمان صادق وثقة عميقة ، الله الذى خلقنا وخلق هذه المظاهر الطبيعية التى تنطق شاهدة على قدرته وجلاله ، كل شىء فيها جميل جلت قدرته ، وكل شىء فيها رائع ، أحكمت صنعته . كل شىء فيها منسجم يدل على عميق حكمته .

زار الشاب صديقا له عزيزا عليه ، يعيش فى قرية تحفها الغابات والأشجار فوجد فروبل المتعطش فى هذا المكان محرابه الذى يتعبد فيه : أرض خضراء أنبتت هذه الأشجار الباسقة والشجيرات ذات الأزهار المنمقة ، وفوق كل هذا السماء اللازوردية التى تجذب العيون إليها جذبا قويا . وكان يرى أنه كلما ازدادت الرابطة بيننا وبين الطبيعة قوة ، زاد سناؤها وبهاؤها فى أعين الرائين فيحسون بالعواطف النبيلة تسرى فيهم ويتأثرون بها ... وكان الشاب المفتون بجمال الطبيعة وسحرها يرجو أن يستطيع تبين العلاقة والرابطة بين النفس الداخلية والعالم الخارجى ، إنه يريد أن يعرف كل فرد نفسه .

وتابع الشاب رحلته مع الربيع الخلاب حتى وصل إلى فرنكفورت ، حيث أزمع دراسة فن البناء والاشتغال بالبناء وفن المعمار . ولكن الأقدار كانت تهيىء له أن يبنى أنفسا وعقولا بدل الدور والقصور .

## ٣- بين التعليم والتعلم

حط الشاب رحاله فى فرنكفورت ، وقابل صديقه الذى كان من ذلك النفر الذين يحبون الخير للغير ، فقدمه إلى رجل مثقف عسى أن يهتديا بهديه النير ، ذلك هو ناظر مدرسة فرنكفورت النموذجية التى كانت تسير فى خطتها حسب آراء بستالوتزى.

واستمع الناظر فى انصات إلى حديث فروبل واستطاع أن يتغلغل قليلا فى خبايا نفسه ليلمح ضوءا خافتا فى الإمكان أن يسطع ويغمر ، وكان الشاب يتكلم من قلبه بحماس واخلاص ، وناظر المدرسة كله آذان تصغى وعيون تشخص ، حتى إذا أتى فروبل على قصته ، رفع الرجل - الذى فكر وتدبر - رأسه وقال «دعك من البناء والهندسة ، وكن مدرسا ... إننا نريد مدرسا فى مدرستنا فإذا وافقت فالمنصب لك» فتردد فروبل قليلا ولكنه فى النهاية مد يده إلى ناظر المدرسة مصافحا ... وهكذا أصبح فروبل مدرسا .

يذكر فروبل فى مذكراته الخاصة أنه تذكر فى هذه الأثناء أنه قرأ ذات يوم فى صحيفة أن رجلا بسويسرا ناهز الأربعين من عمره واسمه بستالوتزى ، قد اعتزل العالم وعكف على تعليم نفسه بنفسه وأنه استطاع بقوة العزيمة والإرادة أن ينجح فى عمله . ويقول بعد ذلك أنه سيقلد بستالوتزى ويعلم نفسه بنفسه ، أو بمعنى أصح سيكمل دراسته معتمدا على الله وعلى نفسه .

وبدأ الشاب يختلط بزملائه المدرسين فإذا بهم يتكلمون عن بستالوتزى وآرائه ويجلس إلى ناظر المدرسة فإذا اسم «بستالوتزى» يطرق أذنيه دائما ويخرج إلى الحديقة ، فتلاحقه الكلمة ويدخل إحدى الحجرات ويسأل عن فكرة تنظيمها فيجد الجواب «بستالوتزى» . وشعر الشاب أن شيئا ينقصه بل هو يطارده فى يقظته ونومه

وأنه يريد أن يستزيد معرفة بهذا الرجل الذى شيد معهدا يعلم فيه أبناء الفقراء والمحتاجين، وأحس الشاب أن هنالك مكانا يجب أن يذهب إليه ليستريح قلبه وتهدأ نفسه .

ولم تمض ثلاثة أيام حتى كان الشاب فى طريقه إلى فردون ، وقد سبقته توصيات من ناظر المدرسة ومعارف بستالوتزى ... وقد قوبل مقابلة ودية واصطحب ككل زائر إلى فصول الدراسة ولكنه وجد نفسه كالتائه فى بيداء واسعة ، فقد كان يجهل تقريبا كل شىء عن التربية .

وأحس أنه قزم بين عمالقة . وعندماشرع الشاب فى مغادرة فردون طلب منه أن يكتب بصراحة عن رأيه فى نظام بستالوتزى ، وشعر بالحرج الشديد إزاء هذا الطلب ولعل من الخير أن أترك فروبل يتكلم عن أثر هذه الزيارة فيقول :

«لقد رأيت أولا معهدا كبيرا يعمل وفق خطة للتدريس ، هذه الخطة تحتوى على كل رائع ، فمثلا نجد أن كل أطفال المعهد فى حصة معينة يدرسون مادة واحدة ويوزع الأطفال على الفصول فى هذه الحصة حسب قدرات كل واحد منهم ... وقد أدهشتنى مقدرة الأطفال فى العمليات الحسابية ولكننى لم أستطع تتبع تطبيقاتها النهائية ، أما عن العمليات الميكيانيكية الآلية فى هذا الفرع من التعليم فقد شعرت إزاءها أننى وسط دوامة عنيفة .

لقد نجح كراوزى فى عمله كمدرس وكانت نتائج الأطفال رائعة ولكننى وجدت فى هذا عنصر الآلية متغلبا سائدا . أما عن تدريس الرسم فقد شعرت بأنه فى حاجة إلى عناية خاصة ... ونجحت فكرة استخدام الأرقام الحسابية وتشكيلها بحيث تمثل بعض الحاجات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية .

وفى الجغرافيا وجدت أن المدرس قد استبعد المنهج العادى والخرائط الملونة ، واننى أعيب عليه أنه جعل كل التعليم من ناحيته وعلى الأطفال حفظ واستظهار ما يقوله . فمثلا يبدأ المنهج بدراسة قاع المحيط وهذا أمر بعيد عن إدراك الأطفال ولكن مع ذلك وجدت أن المنهج أثار حب استطلاع التلاميذ فأقبلوا عليه . وقد أعجبنى فى دراسة مشاهد الطبيعة طريقة المدرس فكان يستنتج الحقائق والمعلومات من الأطفال ثم يطبقها على الطبيعة ... وفى رأيي أنه لم يستطع اعطاء صورة محددة لفكرته وطريقته فكان يقول دائما «اذهب وشاهد بنفسك» وقد يكون هذا متيسرا له هو لأنه يعرف كيف يرى وكيف يسمع ...

لقد أعجبنى بستالوتزى وأثر فى تأثيرا عميقا فأحببته من كل قلبى وخاطبت كلماته الوديعة الهادئة أنبل وأدق احساساتى ...» .

عاد فروبل بعد أن أمضى أسبوعين فى رحاب بستالوتزى وتسلم عمله توا فى المدرسة النموذجية بفرنكفورت . وكانت المدرسة قسمين : قسم للبنين وفيه حوالى خمسة فصول وآخر للبنات وبه ثلاثة فصول ويبلغ تعداد المدرسة حوالى ٢٠٠ طفل ، وبها أربعة مدرسين مقيمين وتسعة زائرين . وعهد إلى فروبل بتدريس الحساب والرسم والجغرافيا واللغة الألمانية . ويقول فى خطاب أرسله إلى أخيه .... «عندما دخلت الفصل كان به حوالى الأربعين طفلا تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة ، وقد بان لى أننى وجدت شيئا لم أدر أبدا كنهه ومع ذلك فقد كنت متلهفا عليه ... عثرت على شىء كنت أعتقده دائما ، وكأنما قد وجدت حياتى أخيرا طريقها الصحيح ، لقد شعرت بالسعادة كالسمكة فى الماء والطير فى الهواء ...» .

وفى يوم وفد إلى فروبل ثلاثة أطفال كان صديقه فى فرنكفورت قد زكاه ليقوم بالإشراف التربوى عليهم فأصبح مربيا لهم ، وقد وجد فى طفولتهم الكثير مما ذكره بأيام طفولته فأقبل على تثقيفهم برغبة وشغف عظيمين وكان كثيرا ما يسأل نفسه ويسترجع أيام طفولته ويذكر ما كان يحن إليه ويتمناه .

كان فروبل يدرس لطفلين من الثلاثة الحساب واللغة الألمانية ساعتين كل يوم ، وكان يصحبهما فى نزهاتهما . وقد اتبع فى تدريس الحساب خطة بستالوتزى فاستراح وأراح ، أما اللغة الألمانية فقد اتبع أولا خطة الكتاب المقرر ولكنه لم يستفد ولم يفد كثيرا ، فألقاه جانبا واتبع خطة بستالوتزى ومع ذلك وجد أن النتائج ليست كما يرجو ... يقول «وعملت أثناء النزهات على بث الخير فيهما وفى الحق أننى عدت مرة أخرى إلى أيام الطفولة مع فارق أساسى وهو السعادة والراحة استشعرهما الآن» ...

ولم يترك الشاب فترة تمر دون أن يستفيد شيئا ، ففى المدرسة وجد فى أطفال الفصل خير معلم يعلمه الطبيعة البشرية ، وأثناء جلوسه مع المدرسين أحس بأن معلوماته تزداد وأنه يستفيد علميا منهم . وكان من قوانين المدرسة أن يشترك المدرس مع أطفاله فى اللعب حتى تزداد أواصر الصداقة بينهم وبينه ، وتدرج الأمر حتى أصبح من واجب المدرس أن يخرج مع أطفاله فى نزهة مرة كل أسبوع وعمل فروبل على استخدام هذه النزهات ، لخدمة علمى النبات والجغرافيا ، فكان يوضح للأطفال علاقة الإنسان بالطبيعة والبيئة وتأثيره فيهما . وبدأ الدراسة بالبيئة المحلية فخرج مع أطفاله لدراسة المنطقة المحيطة بالمدرسة حتى إذا ما وقفوا على عناصرها عادوا مرة أخرى وشرعوا ، بالاشتراك معه ، فى رسم خريطة لما شاهدوه ...

وهكذا تدرج فى الدراسة من البيئة المحيطة إلى المدينة التى بها المدرسة مع تكليف التلاميذ أنفسهم بالرسم مشتركين ، ثم بعد ذلك كلف كل طفل برسم ما يراه وتدوين مشاهداته الشخصية .

وجاء وقت الامتحان ، امتحان للأطفال وامتحان للشباب المتحمس الطموح . وكانت نتيجة الامتحان فى صالحه بل إن أولياء أمور الأطفال صرحوا فى إيمان عميق وسرور زائد، بأن الطريقة التى اتبعها فى تدريس الجغرافيا هى الطريقة المثلى . «وأن الطفل يجب أن يعرف أولا البيئة المحلية التى يعيش فيها ، فهذا أجدى وأنفع له» .. وكانت هذه الفكرة الجريئة هى حجر الزاوية فى فلسفة فروبل التعليمية .

وفى الحساب دلت النتائج فى فصله على سياسة صحيحة اتبعها ، أما فى الرسم فقد اتبع طريقة لم تكن مألوفة إذ أنه استمد موضوعاته من عنصر البيئة التى يقع عليها نظر الأطفال مما حدا بهم إلى الإقبال فى شوق على الرسم .

وكان فروبل يدرس الإملاء فى أحد فصول قسم البنات وهذه المادة لم تكن مرتبطة بغيرها من المواد ولم يكن فروبل ميالا إليها ، ومع ذلك فإن النتائج كانت مرضية . وفى فصل آخر من قسم البنات كان يدرس مبادىء الرسم وكان عليه أن يبدأ برسم الخط المستقيم ثم اتصال وتقاطع الخطوط ، ويقول فروبل إنه لايذكر شيئا عن نتيجة تدريسه لهذه المادة .

لقد أثمله هذا النجاح فأحس بأنه طبع مدرسا . ومادام هذا هو الاتجاه الملائم له فيجب عليه أن يعد نفسه ويكونها تكوينا صحيحا يؤهله ليكون علما من الأعلام . فأخذ يقرأ عن الإنسان والثقافة الإنسانية والمدنيات والطبائع البشرية حتى يستطيع أن يجد التعليل لكثير من أنماط السلوك البشرى التى يراها ، وبدأ يكون لنفسه طريقة خاصة به ونظاما تربويا خاصا به ، ولكنه وجد أن النظام المدرسى لايسمح له باتباعه .

وكأنما كانت هذه الدراسة الشخصية بارادة الله قصد بها أن يغير فروبل نظام حياته فإذا به يسعى إلى مقابلة جرونر Gruner ناظر المدرسة ليصارحه القول بأن العمل فى المدرسة لايتفق الآن مع آرائه ، ورجاه أن يأذن له بالتنحى عن العمل . ولم يوافق جرونر إلا بعد أن أحل فروبل بديلا عنه وصفه بأنه يفوقه فى قواعد اللغة الألمانية وفى الجغرافيا وعلم الأحياء وفى التاريخ . وهكذا ترك فروبل المدرسة النموذجية بفرنكفورت، وكان عليه أن يبحث عن مربٍّ آخر يحل محله فى تربية الأبناء الثلاثة فعكف على البحث وأثناء ذلك كان يتعلم اللغة الفرنسية على يد فرنسى متفقه فيها . غير أن البحث لم يسفر عن نتيجة فإن الشروط المطلوبة لم تكمل فى شخص واحد . ومر الوقت متثاقلا وإذا بالأصابع كلها تشير إليه أن يظل رائد الأطفال، ولا مناص من ذلك ، فهو الجدير بهذا المنصب فليبق فيه ويتفرغ له .

ولم يجد فروبل من ذلك مفرا ولكنه اشترط شرطين : أولهما ألا يكون مقيدا بالمكوث فى مكان واحد ، بل له مطلق الخيار والحرية فى الرحيل بأطفاله إلى أى مكان يريد ، والشرط الثانى أن تطلق يده فى تربيتهم التربية التى يتبين فيها وجه الصواب.

بدأ فروبل عمله الجدى معهم وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره . إن السنوات الأخيرة مرت سريعة الخطا مما جعله يحس بأنه قد جاوز سن الشباب .

وسأل نفسه «ما الغرض من التربية؟» . وكان جوابه حينئذ ... «أن يحيا الإنسان فى بيئة تؤثر فيه ويرغب هو أن يؤثر فيها ، فيجب عليه إذن أن يعرف هذه الأشياء وطبيعتها وأحوالها وعلاقاتها بعضها ببعض ثم علاقاتها بالإنسان . هذه الأشياء لها أشكال ومقاييس وعدد ، فيجب أن يلم الإنسان بكل هذا» ... يجب إذن أن يتصل الفرد بهذه الأشياء وأن يكون اتصاله بها عن طريق حواسه ، ولذا فإن فروبل هنا أعجبه جدا ما رآه من العمل اليدوى فى معهد بستالوتزى .

وهو يقول ... «الكل وحدة ، والكل باق مادام فى وحدة ، والكل ينبع من الوحدة ويعمل ويناضل من أجلها وإليها يعود أخيرا . هذا الكفاح والعمل يظهران فى مختلف نواحى النشاط البشرى» ... وفى رأيه أن تعليم الإنسان وتربيته يجب أن ينبعا من ذات نفسه وأن ينصبا على ما يحيط به من مظاهر الطبيعة . لقد أعجبه حقا نظام بستالوتزى التعليمى ولكنه وجده قاصرا ينقصه عنصر مهم جدا كان يتمنى لو وجده ، ذلك هو الوحدة والانسجام بين مختلف المواد . ينبع سرور الطفل من العمل إذا أدرك أن كل شىء أمامه يكون وحدة مترابطة تعمل بانسجام ونظام . ولهذا عمل فروبل جاهدا ، كى يجعل أطفاله يدركون هذه الحقيقة العميقة .

إن طفولة الفرد تمتلك استعدادات خاصة يمكنها أن تستفيد منها فوائد كثيرة ، ولكن الإنسان لايصل إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن تكون فترة الطفولة قد انتهت ، فادراكه لهذه الحقيقة يأتى فى وقت متأخر ، حيث يصبح الإدراك لاجدوى منه ، وينظر فروبل حوله ويتساءل : هل من شخص يستطيع أن يجعل الطفل يدرك هذه الحقيقة وهو طفل ؟ هل يأتى الوقت الذى نجد الأطفال فيه قد استطاعوا أن يحسنوا استغلال فترة طفولتهم ! .

وفى صيف عام ١٨٠٨ كان فروبل قد قر رأيه على السفر مع أطفاله الثلاثة إلى معهد بستالوتزى كى يستزيد من المعرفة ويستمع إلى هذا الرجل الذى ترك فى نفسه أعمق الأثر منذ زيارته الأولى له .

**وأصبح فروبل مدرسا وطالبا للعلم فى آن واحد .**

***

عاش مع أطفاله الثلاثة فى مكان قريب من المعهد بحيث كانوا يتناولون طعامهم مع زملائهم فى المعهد ويختلفون إلى استماع ما كان يلقى من الدروس ، وكان شغل فروبل الشاغل أن يجد الوسائل التى يستطيع بها أن يوطد الصلة بين مختلف مواد الدراسة . وقد هداه تفكيره إلى أن ذلك ممكن لو درس بتعمق أصول كل مادة . غير أنه وجد فى كثير من مواد الدراسة قصورا معيبا مما يجعل فكرة الربط بينها متعذرة . ولم يكن باستطاعته اكتشاف هذا إلا بعد أن درس المواد التى تدرس كأى تلميذ . حقا إن كلام بستالوتزى كان له أثر قوى ، وكان قلبه رءوما عطوفا على الأطفال وكان متحمسا مخلصا لعمله ولأطفاله ، كان كل هذا وأكثر منه . ولكن طريقته أرضت مريديه لأنهم كانوا قد أحبوه فلم تتضح لهم أوجه القصور فيها كما اتضحت لفروبل الذى استمع له ثم وزن كلامه وفكر فيه ثم رأى طرائق التربية وخرج من كل هذا برأيه الذى يقول فيه : إن الربط معدوم بين المواد .

لقد أغضبه ، ما فى ذلك شك ، طريقة تدريس اللغة الألمانية وغيرها من اللغات. فقد كانت طريقة ميتة لا حياة فيها ولا روح ... تدريس آلى روتينى ممل لايبعث على الحركة ولا يثير الشوق . ولابد فى نظر فروبل أن ترتبط اللغة بالأشياء التى يراها ويتعامل معها الطفل فى بيئته ، فتبدأ بها ، وطالما أن لهذه الأشياء صفات ومميزات فيجب أن يعرفها الطفل لغويا معرفة سليمة فيكون لمحصوله اللغوى من الحيوية ما يساعد على تثبيته وحسن استغلاله .

وقد درس فروبل لعب الأطفال فى الهواء الطلق وخرج من دراسته بأن اللعب هو المنبع الذى ارتشفت منه أطفال المعهد أنماط السلوك الخلقى السليم الذى رآه خلال اقامته ، وهو يرى أن الألعاب كونت مجرى انسابت منه ألوان السلوك الشاذ حتى تطهر الجسم منها . وأعجب كذلك بالجولات التى كان الأطفال يقومون بها ورأى فيها احتكاكا مباشرا بالطبيعة يعود عليهم بالخير . وقد قدس فى بستالوتزى خطاباته العديدة إلى أطفاله عن حبه للطبيعة والبشر ، وكيف كان يتكلم كمن دفعته قوة خفية حتمت على الكلمات أن تنساب من بين شفتيه معبرة صادقة عما فى أعماق نفسه .

وفى عام ١٨١٠ ترك فروبل فردون وقفل راجعا إلى فرنكفورت وقد عول على التنحى عن عمله كمرب كى يلتحق باحدى جامعات ألمانيا ليدرس ويستزيد من المعرفة. نفض فروبل يده من العمل الذى ارتبط به فشغل كل وقته وبارح فرانكفورت إلى جوتنجن Gottingen فى مستهل شهر يوليو سنة ١٨١١ . وعندماوصل إليها التحق تواً بالجامعة .

لقد كان متأكدا من أن البشرية ، ككل ، تكوّن وحدة عظمى ولابد له من أدلة وبراهين تعضد وجهة نظره ، أى لابد له من البحث عن الشواهد التاريخية التى تؤيد رأيه ، فبدأ يبحث ويدرس فى الإنسان الأول ومكان ظهوره ، ثم يتتبع نمو المدنية فى فجرها وضحاها ثم يدرس اللغات التى هيمنت على الأرض فى ضحى المدنية . وقد

هداه التفكير إلى أن اللغات الشرقية هى نقطة الارتكاز فبدأ على الفور بدرس اللغتين العربية والعبرية ، ودرس إلى جانبهما بعض اللغات الشرقية كالفارسية .

وهداه تفكيره الصائب إلى أن العلوم الطبيعية بظواهرها الحية الملموسة ، يمكن أن تكون عماد وأساس قوانين التقدم البشرى ، بل إن هذه العلوم تلقى ضوءا غامرا على ثقافة الإنسان وتربيته ، وليس غريبا إذن أن يفنى فروبل فى دراسة هذه العلوم. فانكب على الطبيعة والكيمياء يكاد يلتهم كتبهما ويأتى على ما فيها ، ولكنه وجد أن كتب الكيمياء أكثر وضوحا وتعمقا من كتب الطبيعة ، ولاح له أن الحقائق الكيميائية أكثر يقينا وتأكيدا من الطبيعية .

وفى النصف الثانى من العام الدراسى بدأ فروبل دراسة الجيولوجيا والكيمياء العضوية ودرس فى نفس الوقت التاريخ السياسى والاقتصاد السياسى وكان غرضه من هذا الخلط أن يتتبع تطور النمو الإنسانى مقارنا ذلك بالنمو فى الطبيعة .

وفى أكتوبر ١٨١٢ رحل فروبل إلى جامعة برلين ، حيث عرف أستاذا ذاعت شهرته فى الآفاق ، فوجد من الخير له أن يستمع لمحاضراته فى التاريخ الطبيعى . ويعترف فروبل أن محاضرات الأستاذ وايز Weiss أشبعت حاجات عقله وروحه وأكدت له فكرة الوحدة والترابط مدعمة بأدلة مستمدة من الطبيعة ذاتها . وجلس فروبل يفكر فى صدى محاضرات هذا الأستاذ وخرج من تفكيره الفلسفى بالحقيقة التالية :

«إن الظواهر المختلفة فى حياة الإنسان كالعمل والتفكير والإحساس تتجمع كلها فى وحدة بقائه وكيانه الشخصى» .

وبعد أن وصل إلى هذه الحقيقة المهمة اتجه بكليته إلى تطبيقها على المشكلات التربوية . وحانت له فرصة مواتية سرعان ما أحسن استغلالها فقد عرض عليه منصب مدرس فى مدرسة ذات شهرة كبيرة هى مدرسة بلامان Plamann فعمل

بها كى يتحصن ضد عوادى الدهر إذا قدر ونضب معين ماله قبل أن يستكمل دراسته. وخاف أن يضطر إلى قطع دراسته فى الجامعة ولكنه مع ذلك اضطر إلى قطعها لظروف خارجة عن إرادته وكان ذلك فى مستهل عام ١٨١٣ . فقد دعا داعى الحرب وقرعت الطبول وكان على الشباب أن يحملوا سلاحهم ليدفعوا عن حمى الوطن شنات بونابرت الماحقة .

ترك فروبل أقلامه وكتبه وحمل سلاحه ووقف فى الصف ثم تحرك الجيش جنوبا . وكان معه فى فرقته عدد كبير من طلبة جامعة برلين ، وكثيرا ما كان يجلس إليهم يتقارضون الحنين إلى قاعات الدرس والمحاضرات . ويشعر فروبل بأنه مدين بفضل كبير للحياة العسكرية التى اندمج فيها ، فقد استفاد جسمه من التمرينات الاجبارية فوائد جمة ، وخضع للنظام الصارم مما يجعل حبه للنظام عادة تأصلت فى نفسه ، حانت له فرصة ذهبية تقطع مسافات كبيرة مشيا على الأقدام خلال الغابات والمناظر الطبيعية الساحرة .

وفى ٣٠ مايو ١٨١٤ وضعت الحرب أوزارها وأعلن السلام وسمح لكل حامل سلاح أن يعود إلى سابق عمله إذا شاء ، فعاد فروبل إلى برلين وكان قد عرض عليه منصب الأمين المساعد للأستاذ وايز بالمتحف الملكى للتعدين ، وكان بإمكانه أن يجد فيه هوايته من المعادن وباستطاعته كذلك أن يستكمل دراسته بالجامعة . وظل ببرلين حتى عام ١٨١٦ ، ولكنه رحل عنها فجأة دون أن يودع أصحابه ومضى إلى جهة مجهولة لم يعلموا عنها شيئا أو يقفوا على البواعث المجهولة التى حملته على ذلك .

## ٤- فروبل الرجل

لم يعلم أحد أن فروبل قد ترك برلين بعد أن أمتلأ من المعرفة وتضلع من حقائق العلم ونظرياته حتى أحس بالتخمة وأراد أن يفرغ بعض ما فى نفسه فى عمل تجريبى بعيد عن الصخب وعن أضواء المدينة الكبيرة . وكان معه قليل من المال مكنه من استئجار كوخ أحد الفلاحين فى قريته جريشم Griesheim وأطلق عليه اسم المعهد الألمانى للتربية ، وكان عدد تلاميذ المعهد خمسة . وقد رأى بثاقب بصيرته أن التعليم المثمر لن يتأتى إلا بعد أن يعرف المعلم طبائع أطفاله ويدرسهم ويقف على ميولهم واستعداداتهم ثم يجرب طريقته فإذا فشلت لجأ إلى طريقة أخرى حتى يستطيع أن يصل إلى الطريقة المثلى الصحيحة فيتبعها ، وبذلك يمكنه أن يفيد الأطفال .

ثم استدعى فروبل لمعاونته زميلا تعرف به أيام حمل السلاح وهو مديندورف Middendorff . غيرأن منظر الكوخ وحالته كانا مما لايشجع على العمل . فلم يكن له باب يوصد أو يفتح ، ولم تغط أرضيته بل تركت لتحاكى أرض الشارع ولم تكن به مدفأة تخفف من حدة البرد القارص أيام الشتاء . وبعد أشهر معدودات لحق بفروبل زميل آخر هو لانجيثال Langethal . وجاءت النجدة عام ١٨١٨ عندما تبرعت أرملة بزرعتها الصغيرة فى كلهاو Keilhau . لتكون مركزا للمعهد . وكان عدد التلاميذ حينئذ قد وصل إلى اثنى عشر .

ولكن المعهد كان بحاجة إلى المال حتى يواصل مهمته ولم يكن فروبل كما نعلم على شىء كثير أو قليل من الثراء ولم يكن زميلاه بأحسن حالٍ منه : ووسط هذه الأزمة تزوج فروبل من آنسة رآها أيام كان يعمل فى المتحف ببرلين وكانت قد تتلمذت على يد الفيلسوف فختة وقرأت فى التربية ، ووصفها فروبل بأن جمالها كجمال الطبيعة وأن روحها سامية محبة للخير . وفى الحق أن هنريتا Henrietta زوجته

كانت تشترك معه فى عمله بروحها وعقلها . وقد رفض والدها أن يعينها بشىء من أجل المعهد حتى بدأ شبح الإفلاس على الأبواب ، ثم إذا بالعناية الإلهية تتدخل فى صورة موت أحد الأغنياء عن تركة طائلة ، وكان هذا والد مديندورف الذى أوقف ما ورثه كله على المعهد .

واستطاع الثلاثة بهذه النجدة أن يكملوا البناء الذى بدءوه حتى بلغ عدد الأطفال فى عام ١٨٢٦ حوالى الستة والخمسين طفلا ، وخلال هذه السنوات كان فروبل لايفتأ يصدر النشرات والمطبوعات عن معهده معضدا آراءه ومبادئه حتى يجذب إليه الأنظار، ولكن الأنظار ، وياللأسف ، قصرت عن أن ترى هذا المعهد كما أن العقول لم تستطع بعد هضم ما حوته هذه النشرات من آراء ، حتى كان آخر عام ١٨٢٦ عندما طلع فروبل على العالم بتحفته التى فنى فى عملها وكتابتها وأضنى نفسه وعذبها وحرمها من كثير من الملذات حتى استطاع آخر الأمر أن يقدم كتابه «تربية الإنسان» [1] وأسس فى نفس العام صحيفة أسبوعية أطلق عليها اسم «صحيفة العائلة للتربية» [2] .

ولعل من المفيد أن نعرف الظروف التى أحاطت بالمعهد فى هذه السنوات وهى ظروف خارجية أملتها السياسة والحروب . أدت إلى إحساس سادة برلين أن ثمة خطرا قد ينجم من هذا المعهد فضغطوا على أمير الولاية كى يوصد أبوابه فأرسل من لدنه من يراقب أعمال المعهد عن كثب ، وبعد أن زاره مرتين كتب تقريره وضمنه رأيه الصريح فى المعهد ، ولعل من الخير أن أنقل شذرات من هذا التقرير :

«إن اليومين اللذين قضيتهما فى هذا المعهد أدخلا السرور على نفسى ورفعا من قيمته فى نظرى ، ولشد ما أعجبت بالقائم على أموره فهو رجل قد صبر أمام العقبات الكثيرة التى اعترضته وجاهد وقاوم فى سبيل التغلب عليها معضدا بإيمان

(1) Mensehen Erziehung .
(2) Family Journal of Education .

عميق وحماس منقطع النظير ... لقد رأيت فى هذا المعهد شيئا لم أجده قط خارجه ، رأيت عائلة متآلفة متعاونة متحابة يزيد عدد أفرادها على الستين ، عائلة منسجمة يعمل كل فرد ما يوكل إليه من واجبات بسرور وفرح ، رأيت أفرادا يكونون وحدة متفاوتة متجانسة تظللهم الثقة المتبادلة ويعمل كل لرفاهية المجموع ، رأيت الحب والسعادة يرفرفان عليهم ... والفضل يعود إلى سيد المعهد ومنشئه ، فترى الأطفال يتعلقون به والزملاء يخضعون لنصائحه الغالية وإشاراته الحكيمة التى صقلتها التجارب والخبرات والقراءات الكثيرة المستوعبة ، فهو دائب العمل لايعرف الراحة أو التلكؤ ... والمدرسون يعملون بإيمان وكلهم مخلصون فى عملهم متحدون متحابون يتعاونون فى سبيل خير المجموع وبهذا ينجح المعهد فى رسالته ويؤتى أكله . والأطفال يلعبون ويلهون فى براءة وسذاجة وحرية تشجعهم وتحميهم ، ولم أر معاملة فظة غليظة ولم أسمع كلمة قاسية من مدرسة ولا لفظة نابية من تلميذ ، والسلوك فى مجموعه سليم خال من الشوائب ، والأطفال كلهم متساوون فى المعاملة لافرق بين طفل وآخر . وكلهم متحابون وكأنهم إخوة فى بيت واحد ، يلعبون فى حرية ولكن تحت إشراف مدرسيهم اليقظين ... ويجد الطفل المجال ميسرا للتعبير الحر عن نزعاته وميوله ، وإذا هفا طفل أو أخطأ وجد المجموعة قد أصابها الضر فيصحح خطأه ويقدم اعتذاره ولا يعود مرة أخرى إلى فعلته ... وتدفع الحياة الداخلية فى المعهد إلى حب النظام التام وإلى الترتيب والنظافة مما لايمكن أن يوجد مثيله فى أى معهد آخر ... وتبدأ الدراسة فى هذا المعهد فى السنة الخامسة من عمر الطفل بتشجيعه على استخدام حواسه ، فيبدأ أولا فى تمييز نفسه عن غيره (من الأشياء الأخرى) ثم يميز كل شىء عن الآخر مما حوله ثم يعرف ما يحيط به ويربط بين كل اسم ومسماه ... ودستور هذا المعهد قائم على النشاط الذاتى للفرد وليس على استظهار حقائق تلقى على الأطفال ، ويسير التعليم فيه من البسيط إلى المركب ومن المحسوس إلى المعقول ، بحيث يقبل الطفل على التدريس إقباله على اللعب . وقد حدث أن رأيت جماعة من الأطفال

الصغار وقد جاءوا إلى رئيس المعهد يبكون لأنهم سيلعبون طول اليوم الدراسى ولن يستمعوا فى ذلك اليوم إلى دروس ... » .

ويلوح أن أيام الصفاء لاتدوم وأن ناحية الشر عند البشر لابد أن تفصح وتعبر عن نفسها ، فقد حدث سوء تفاهم بين فروبل وأحد زملائه واستطاع هذا أن يضم إلى صفه أخت زوجة فروبل وكانت أرملة لها ثلاثة أطفال ، وغادر المعهد وقد بدأ يتهدده الخراب والأفول ولم يأت عام ١٨٢٩ إلا وقد تطرق الفشل إلى المعهد فنقص عدد تلاميذه حتى أصبح لايتجاوز أصابع اليد الواحدة .

ولكن الله لايضيع أجر من أحسن عملا ، ولو كان فروبل حقا كمانعته هذا المارق الأحمق ، لو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله ولكنه جاء إلى هذه القرية بقلب رحيم ونفس آمنة متطلعة إلى الخير . وكما عود الله فروبل انقاذه فى الأزمات فقد أنقذه هذه المرة أيضا ، أنقذ الطائر المترنح من السقوط فى الهاوية ، وكان انقاذه على يد جماعة من أصدقائه الذين عرفوه وقدروه حق قدره فهؤلاء ملأوا مجلس دوق ميننجن Meiningen باطراء معهد فروبل حتى اشتاق الرجل إلى رؤية صاحب هذا المعهد وطلب إليه الحضور ، فمثل بين يديه واستمع له وأعجب به ثم سأله عن خططه للمستقبل ، فعرض عليه فروبل خطة لإنشاء معهد تعليمى Volkserziehungs-Anstalt ولم يقتصر العمل بهذا المعهد الجديد على مجرد المواد الدراسية بل اشتمل على الناحية العلمية كذلك كأعمال النجارة والنسج وتجليد الكتب وما إلى ذلك واتخذت هذه الأعمال كوسائل للتربية .

وكانت فكرة فروبل هنا ترى أن الطفل لايجب أن يعامل على أنه شخص مستقبل لما يلقى إليه قط بل على أنه كائن يبتكر وينتج وهو يرى أن أعمال الطفل تعبير صحيح عن احساساته وميوله . ولم يستطع أن يخرج فكرته هذه إلى حيز الوجود أيام «كلهاو» ولقصور ذات يده وقلة المدرسين . ولكن عندما عرضت عليه هذه

الفرصة الذهبية سارع باقتناصها والافادة منها . وفى هذه الأثناء كتب إلى صديق له يصف شعوره ومشروعاته وألمع إلى أن هذا المعهد سيضم بين جنباته الأطفال من سن الثالثة إلى السابعة وهو يرى أن دستور هذه «المدرسة» سيكون العمل على تهيئة الظروف الملائمة لنمو الطفل فهى ليست مدرسة بالمعنى المفهوم من التعليم والامتحان ، ولعل هذه الفكرة هى أساس مشروعه الجبار عن رياض الأطفال .

وكيفما كان الأمر فإن إرادة الله شاءت أن تذوب هذه الأحلام وأن تذورها الرياح. ذلك أن المحيطين بالدوق وجدوا نفوذ فروبل يتزايد فأكلت الغيرة قلوبهم وأماتت ضمائرهم ووجداناتهم فكادوا له عند الدوق حتى سحب هذا ثقته فى المشروع . وكانت صدمة قاسية لفروبل صاحب الروح المتلهفة والنفس الطموح ، ثم سافر فروبل إلى فرنكفورت ، حيث التقى برجل ذائع الصيت فى التلحين الموسيقى هو شنيدر Schnyder وعندما وقف هذا على قصته عرض عليه أن يقيم معهده فى قلعة له بسويسرا ، فسافر فروبل على التو غير أن السلطات الحكومية هناك عارضت الفكرة ، وحاول الأب جيرار معاونته ولكنه لم ينجح فى أول الأمر ، وحتى نجاحه بعد ذلك كان خافتا لأن موقعه وبناءه لم يشجعا على العمل ، فقر الرأى على الهجرة إلى مدينة صغيرة قريبة اسمها ويليزاو Willisau ثم عاد فروبل إلى كلهاو حيث اصطحب زوجته معه فى أوبته إلى ويليزاو ، وفى مايو ١٨٣٣ افتتح المعهد أبوابه لستة وثلاثين طفلا، واستمرت المعارضة تحاول تحطيمه ولكنه مع ذلك نجح .

وترامت الأخبار إلى حكومة برن السويسرية بنجاح المعهد وبطريقة فروبل الحديثة فاستدعته وطلبت منه أن يضع خطة لإنشاء ملجأ فى برجدورف وأن يلقى محاضرات فى هذه المدينة على المدرسين بعد أن أرسلت إليه خمسة من الطلبة الذين يعدون للتدريس ، للتلمذة عليه فى ويليزاو . وذهب الرجل العصامى إلى برجدورف وألقى محاضراته فى اعتزاز وثقة ، ونالت هذه المحاضرات كل نجاح وتقدير ، وظل

فروبل يعمل فى معهده بجد ونشاط وإيمان ، والإيمان أساس النجاح ، حتى استدعته حكومة سويسرا ليدير شئون المعهد الذى كان قد تم إنشاؤه كما أراد فى برجدورف . وهكذا يدور الزمن دورته ويقف فروبل مكان أستاذه بستالوتزى بعد ثلاثين سنة ليحاضر فى التربية وليشق لاسمه طريقا إلى الجوزاء بعزيمة حديدية وإرادة لاتعرف الوهن ولا الكلال وإيمان عميق بث فى نفسه الصبر حتى نال ما تمنى ، وأصبحت سويسرا بل كل أوربا تتكلم عن الرجل الذى شيد نظاما تعليميا محكما ، ولعل عمله فى هذا الملجأ مع هؤلاء الصغار هو الذى أوحى له بأن تربية الصغير تحتاج إلى إصلاح كبير ، ولعله هنا أيضا قد هبط عليه وحى تربية الأمهات وإعدادهن لكى ينشئن الأطفال نشأة صحيحة مجدية .

وفى عام ١٨٣٦ اشتدت وطأة المرض على زوجته التى حنت إلى العودة إلى ألمانيا ، فصحبها فروبل قافلا إلى أرض وطنه بعد أن ترك اثنين من مساعديه لإدارة الملجأ . وبعد سنة من رحيله آب إلى كلهار ، حيث قابل أحد الزملاء وكانت قد اختمرت فى ذهنه فكرة إنشاء معهد لتعليم صغار الأطفال . وفى مدينة بلانكبورج Blankenburg تم إنشاء ما أسماه فروبل «معهد لمساعدة صغار الأطفال Anstalt fur Kleinkinderpfiege» جذب هذا المعهد الناس إليه وكتبت الصحف عن هذه التجربة الجريئة وتسابقت المدن على دعوة فروبل لالقاء محاضرات بها فحاضر فى درسدن وليبزج ، بل إن ملكة ساكسونى استمعت إلى محاضرته فى درسدن وكان ذلك عام ١٨٣٩ .

وسط أكاليل الغار التى طوقت جيده وبين هالات المجد والسؤدد الذى وصل إليه فروبل ، لاح له شبح الموت يحوم حول زوجته التى كانت نعم العون والسند له . ووقف الأطباء واجمين أمام سلطان الموت العاتى فأسلمت الروح وأسلم زوجها نفسه إلى الحزن. ولكن حزنه لم يثنه عن عمله فانكب عليه يجد فيه السلوى والعزاء . وكانت تفد إليه

أعداد من المعلمين يستمعون إلى طريقته حتى أنه اضطر إلى تنظيم دراسات دورية خاصة بهم . ومن بين الذين تخرجوا على يديه اثنان افتتحا مدرستين لصغار الأطفال فى فرنكفورت ، وكان فروبل لايفتأ يفكر فى اسم لائق لمعهده حتى إذا كان ذات يوم وفد مع زميلين له على مدينة بلاتكنبورج وكانوا طوال الطريق يفكرون فى اسم لائق. وفجأة وقف فروبل وصاح صيحة هائلة دوى صداها فيما حوله : ثم قال «روضة الأطفال» Kindergarten .

وهكذا ولدت رياض الأطفال بعد جهاد دائم ومجهود جبار . وكان الشيخ قد بدأ يحس وطأة السنين على جسمه ، ومع ذلك فقد كان نشيطا حيا لايعرف الخمول أو الكسل ، فطفق ينشر ويذيع آراءه بحماس . وطالب البلدية بأن تعطيه قطعة أرض يقيم عليها روضة نموذجية ويضم إليها فصولا لتدريب المدرسات على طريقته الجديدة، على أن يعهد إليهن بتعليم الأطفال من الثالثة حتى السابعة . وفى هذه الأثناء طبع فروبل كتابه «الأغانى للأمهات وصغار الأطفال» Mutter-und Kose Lieder وكان ذلك عام ١٨٤٣ وفى العام التالى جال وفى صحبته مديندورف – فى أنحاء ألمانيا يحاضر وينشر تعاليمه وآراءه .

وفى الحق أن الرجل لم يلق التقدير الذى يستأهله ، فإن مواطنيه لم يستقبلوه كما يجب أن يكون استقبال العبقرى النابه ، بل إن المدرسين فى كثير من أنحاء ألمانيا لم يتحمسوا للقائه . ولنا أن نتساءل : أكان سبب ذلك الثورة على كل جديد أم الغيرة من تألق نجم فرد ؟ أم عدم تقدير لرسالته النبيلة ؟ قد يكون هذا أو ذاك ، ولكن المؤكد أن فروبل عاد من رحلته وفى قلبه غصة وفى نفسه لوعة وحسرة فقد توقع غير ما رأى ، ولكنها الطبيعة البشرية لاتعطى كل ذى حق حقه ، وقد لاتعترف لفرد بفضله إلا بعد سنوات عديدة من وفاته ، إنه الإنسان الجحود الظلوم .

على أن الغريب فى أمر فروبل أنه - وقد رأى جحود الرجال - كرس نفسه وجهده لصالح النساء والنهضة بمستواهن فإذا به يقضى عامين كاملين ١٨٤٦ : ١٨٤٨ فى التدريس وإلقاء المحاضرات على المدرسات والأمهات وكان مركز اقامته كلهاو ، وقدر لأحدى تلميذاته أن تكون زوجته الثانية فيما بعد . ويصرح فروبل بأن فكرته عن الأعمال اليدوية جاءت إليه من ملاحظته لتلميذاته .

وقد رد إلى الرجل بعض اعتباره عندما استدعى لالقاء محاضرات فى درسدن وقوبلت محاضراته بما هى جديرة به من النجاح والتقدير . وعاد بعد ذلك إلى كلهاو ومنها إلى لبنستشين Leibenstien حيث عكف على إعداد المعلمين والمعلمات ، وكانت ساعده الأيمن فى عمله من قدر لها أن تكون زوجته الثانية ، كما ذكرنا ، واسمها لويزليفان Luise Levin وهنالك قابل أيضا البارونه برتافون مارينهولتز بيلو Bertha von Marenholtz-Bulow وإليها تدين حركة رياض الأطفال بجانب عظيم من الفضل ، فإذا كان فروبل هو الذى ابتدع نظامها فهى التى رعتها ونشرتها . وفى نهاية ١٨٤٩ استدعى إلى همبورج كى يحاضر فى تربية النساء بدعوة من الاتحاد النسائى ، وكان الاتحاد قد دعا أيضا كارل فروبل ابن أخيه وكان أستاذا فى جامعة زيورخ ، غير أن هذا ضمن محاضراته مبادىء ثورية ووقف ضد عمه فى كثير من الآراء .

ولاح خريف حياة فروبل هادئا ناعما فأنشأ جريدة أسبوعية فى التربية عهد إدارتها إلى الدكتور لانج Dr. Lange وكان ذلك عام ١٨٥١ ، وفى نفس السنة تزوج من لويزليفان ، وأحس الرجل أنه وجد فى بيته آخر الأمر الراحة التى عدمها طوال هذه السنين وأحس أنه أدى رسالته خير أداء وأنه وصل إلى ما ابتغاه . ولكن تأبى المتاعب إلا أن تلاحقه فقد صدر أمر فى ٧ أغسطس ١٨٥١ من وزير المعارف والدين البروسى . نص فيه على إلغاء رياض الأطفال فى الولايات حاضرا ومستقبلا . وسبب ذلك أن كارل فروبل ألقى محاضرة عن تعليم البنات ورياض الأطفال واتهم فيها نظم

فروبل بأنها تدفع الأطفال والبنات إلى الإلحاد ، وعبثا حاول وسطاء الخير أن يثنوا الوزير الأهوج عن رأيه . وقدر لفروبل أن يموت وهذا الأمر نافذ المفعول ، ولم يلغ إلا عام ١٨٦٠ .

هاجر الشيخ إلى ولاية أخرى وبدأ ينشر تعاليمه ويدافع عن نفسه غيرأنه وجد الأصابع تشير إليه على أنه ملحد ووجد ضباب الشك ينتشر حوله وستور الليل تسدل والظلام يخيم عليه . ولكن ثمة ضوء انبثق أمام ناظريه ، فقد عقدت جمعية فى جوته Gotha ودعى إلى الحضور ، وعندما خطا داخل مكان الاجتماع بقلب واجف يرجف ، وقف الحضور احتراما له فاستجمع شجاعته وتقدم فى خطى ثابتة حيث المنبر ، وتكلم عن تدريس العلوم الطبيعية بكل جوارحه ، واستمعت الآذان فى صمت تام حتى إذا ما سكت لسانه تعالت حناجرهم بالهتاف ودميت أيديهم من التصفيق .

لقد نصر الله الشيخ المؤمن وأعلى كلمته ولكن نهايته كانت قريبة ففى طريق العودة أحس بالمرض فحمل إلى سريره وعاده أصدقاؤه الأوفياء وجلسوا حوله وهو يحدثهم عن الدين ، وعن قدرة الله تعالى وعن جمال الأزهار ونضرتها وأشباه ذلك ، ولكن قواه كانت تخور يوما بعد يوم وبدأ عقله يضعف فى رأسه الذى اشتعل شيبا ثم فارق دنياه فى الحادى والعشرين من شهر يونيو ١٨٥٢ .

## ٥- كتاب تربية الإنسان

### تمهيد

على النقيض من بستالوتزى كان فروبل فيلسوفا ، فلسفِ الكثير من الحقائق التى اقتبسها عن سيد فردون . لم يكن فروبل حالما يجول فى بيداء الخيال وصحراء الأوهام ، بل كان واقعيا عمليا .

إننا نسجل هنا مفخرة للقرن التاسع عشر ، نسجل أن رجلا فكر ولكنه لم يعش فى برجه العاجى بل ترك صومعته ونزل إلى الميدان فجرب واختبر وشاهد ودون، وإذا كنا قد اعتدنا أن نرى فلاسفة يتكلمون فى التربية وهم بعيدون عنها ، فها هو ذا واحد تفلسف وجرب ونزل إلى ساحة الوغى يختبر أسلحته ، دون درع يحميه اللهم إلا الإيمان والثقة واليقين ، فخرج منتصرا باذن الله .

نقدم إلى القارىء فى الصفحات القادمة مقتطفات من ثمرة عمل فروبل فى معهده فى كلهاو «تربية الإنسان Die Menschen Erziebun » . وهو كتاب ضخم فى حجمه ، ومادته وتخيرنا لك منه ما يرتبط بتربية الطفل قبل المدرسة .

### الأسس العامة

يسود ويوجد فى كل شىء قانون أبدى خالد . ويؤسس هذا القانون الكامل الشامل على الوحدة الأبدية الحية المهيمنة على كل شىء . ولن يخطىء التفكير الإنسانى والذكاء البشرى فى معرفة هذه الوحدة ، بل إن التفكير والذكاء لم يفشلا مرة فى التعرف على الوحدة الأبدية الخالدة .

هذه الوحدة هى الله، خلق كل شىء وإليه مآل كل شىء ، وهو يعمل باذنه وأمره فهو يملك كيانه ، ووجوده ، وبناءه ، وهو المهيمن المسيطر ولامرد لارادته ، وهو على كل شىء قدير ، منه الأمر وإليه التدبير . كل شىء يحيا بإذنه ، بقدرته الإلهية .

فيجب على الإنسان أن يعرف هذه القدرة الإلهية المهيمنة عليه ثم يعى سلطان الله وجلاله ، يجب على الإنسان ككائن عاقل مفكر أن يعرف هذا ثم يفصح عن روحه الالهية فى سلوكه وحريته .

إن دور التربية يمكن أن يلخص فى أنها تعد الإنسان ، ككائن مفكر عاقل ، تعده ليظهر قانون الوحدة المقدسة الباطنى فى حرية ونقاء ، وتعمل التربية على أن تهيىء له السبل والوسائل التى توصله إلى هذه الغاية ..

وعلم التربية هو معرفة هذا القانون الأبدى والتبصر فى أصوله وفى روحه وفى تأثيراته وتأثر الأشياء به ، ثم علاقة هذه الأشياء بالإنسان وعلاقته بها .

أما نظرية التربية فهى العقائد التى اشتقها الإنسان من دراسة هذا القانون والتى ترشد الناس العقلاء والمفكرين إلى فهم عملهم وتحقيق مصيرهم .

أما فن التربية فهو تطبيق هذه المعرفة الحرة والبصيرة فى نمو الإنسان المفكر وإعداده لتحقيق مصيره .

وغرض التربية هو حصول الفرد على حياة حرة مقدسة فيها الوفاء والاخلاص وهذه هى الحكمة فى أسمى صورها .

ولعل هدف الإنسان الأسمى أن يكون عاقلا حكيما ، بل هذا هو خير نتاج لإرادة الفرد .

وإن لب الحكمة أن يعلم الإنسان نفسه والآخرين ، وقد بدأ ذلك منذ ظهور الإنسان على الأرض واتضحت بجلاء عندما أحس الفرد بأنه كائن قائم بذاته . والتربية الآن أمر ضرورى ولازم للبشرية . وبالتربية يستطيع الإنسان أن يلج باب الممر الذى يقوده إلى الحياة فيعبر عن نزعاته الداخلية وينفذ مقتضيات إنسانيته ، وبهذا يحيا الفرد سعيدا طاهرا .

فالتربية تعمل إذن على أن نهيىء (الروح) الفرد أن تفصح عن نفسها فى الظاهر وفى الخارج ، ويجب أن تكون الحرية شعار هذا الافصاح والتنفيس .

وستؤدى التربية ، عن طريق التعليم ، بالفرد إلى إدراك ومعرفة المبدأ الروحى الأزلى والالهى الذى يوهب إلى كل ما يحيط به من كائنات . وسيعى الفرد أن الإنسان والطبيعة مصدرهما الله ، وأن الله هو المهيمن عليهما .

فالتربية إذن تسوق الفرد إلى إدراك نفسه وما فيها ، وإلى أن يحيا فى سلام مع الطبيعة وفى وفاق ووحدة مع الله ، ولذا فلابد له من معرفة نفسه والجنس البشرى، من معرفة الله والطبيعة ، ثم عليه أن يعرف الحياة الهانئة الرغيدة التى تؤدى إليها هذه المعرفة .

يعبر سلوك الفرد الظاهرى عن إحساساته وميوله الداخلية ، فنستطيع أن نقف، من ملاحظة سلوكه ، على مافى نفسه ، ويجب أن نراعى فى تربيتنا له هذه الحقيقة . ومهما اختلفت مظاهر السلوك البشرى فكلها مصدرها نبع واحد هو الوحدة الإلهية ، وحدة الله .

ولعل منشأ كل الأخطاء فى التربية مرجعه إلى تجاهلنا طبائع الأطفال أو أننا نفهم هذه الطبائع فهما خاطئا ، وذلك يؤدى حتما إلى عدم تقدير نزعات الطفل فنحكم على أنماط سلوكه أحكاما جائرة ، وبذلك تكون تربيتنا له مشوبة بهفوات لاعدد لها ، ولا يستطيع الأب أن يفهم حقيقة ابنه الطفل ، ويؤدى هذا إلى تكليف الصغير بما لاطاقه له به .

ويجب على الآباء والمربين أن يكونوا حذرين ، فلا تخدعهم الظواهر فيظهر الطفل غير ما يبطن ، ويخدع المدرس والوالد بهذا المظهر فيسرع فى حكمه وبذلك يحيد عن الصواب . فهذا الطفل الكثير الحركة والكلام والدائب النشاط لايدل سلوكه على نفسية شريرة ولكنه يريد أن ينفس تلقائيا عن طاقة عنيفة يحس بها فى الداخل. والتربية الحقة هى التى تسمح للأطفال بالحركة والعمل والايجابية لا أن يستمع ويحفظ.

إننا نعطى النبات الصغير الوقت والمكان اللازمين للنمو ، ولاتتدخل نحن فى هذه العملية (النمو) إلا لكى ندرأ عنه خطرا يهدده ، ولكن دون ذلك أتركه لطبيعته وفطرته فإذا به ينمو نموا سليما جميلا رائعا . أما نحن معشر البشر فنرى فى الطفل قطعة من الشمع أو قالبا من الطين أشكله كيف أشاء ، فاتدخل فى نموه وأجبره على أفعال خاصة وأدفعه إلى سلوك معين ولا أتركه إلى طبيعته الفطرية مع أننا نرى الطبيعة جميلة منسجمة لأنها تركت لتنمو دون تدخل خارجى فى هذا النمو .

يخضع نمو الإنسان ونمو النبات إلى قانون واحد ، ومع ذلك فإننا نربى النبات تربية صحيحة فينتج ويثمر لأننا نتبع الطريق الصحيح ، أما فى تربيتنا للطفل فلا نتبع الطريق السوى الصحيح ، بل نشت ونضل ، ولكن يجب أن نراعى هنا حقيقة لامراء فيها وهى أن بين الأطفال اختلافات ولم يصبوا كلهم فى قالب واحد ، ولذا فإن كل فرد شخصية قائمة بذاتها . والتربية فى هدفها الأسمى تسعى إلى أن تهيئ لكل فرد الفرص ليظهر إحساساته ونزعاته الباطنية ولكى يستطيع فى النهاية أن يحيا الحياة الطاهرة السعيدة .

ويجب أن نستغل نشاط الطفل الذاتى ليتعرف على ما حوله ويتفاعل معه ويؤثر فيه ثم يرى استجابته له ، والمقصود بالنشاط الذاتى أن ينتفع الطفل نفسه بما يفعل ويعمل ، ويتطلب هذا أن يكون الطفل يقظا واعيا إلى ما حوله وأن يشمل النشاط الطفل كله ، من جميع جوانبه ونواحيه .

إن مجرد تقليد أنماط مثالية من السلوك لايكفى للنمو الكامل الصحيح للطفل بل لابد من تأثير فى الداخل ومنه ، أى لاتكتفى بالسلوك الظاهرى ، بل نريد أن يكون الفرد صورة للمثال الخالد ، ويصبح بذلك كل فرد أنموذجا لنفسه ومثلا أعلى لغيره ولنفسه أيضا . وبذلك يكون التحسن والنمو من الداخل ، من الأعماق والجذور ، فلا يمكن اجتثاثه .

وتعمل التربية الصحيحة والتعليم المجدى والتدريب المثمر على النمو الصحيح المتزن ، وهنا يبتعد الفرد عن الغش والخداع والخضوع والاستكانة ، ويحيا فى حرية وأمن وطمأنينة عزيزا مكرما ، ولن يتمكن من ذلك إلا إذا وضعنا نصب أعيننا مراعاة ميول الطفل ونزعاته .

والتربية فى كل مظاهرها يجب أن تكون مزدوجة الجانب ، تهب وتأخذ ، توحد وتقسم ، فيها الايجابية والسلبية ، فيها الصلابة والليونة ، ولكن بين كل نقيضين ، وحتى بين المعلم والمتعلم ، يجب أن يوجد شىء ثالث يخضع له كل من المعلم والمتعلم ، هذا الشىء هو «الحق» أو «الأفضل» . والأفضل ، أفضل تبعا للظرف الخاص الذى يوجد فيه ، ويجب على المربى أن يخضع لهذا الحكم ، لهذا الشىء الثالث ، وعليه أن ينتهز كل فرصة مواتية ليعلن ولاءه وخضوعه له .

ويجب علينا أن ننظر إلى الأطفال على أنهم هبة الله ، وأنهم مظهر للروح الالهية القدسية فى شكل بشرى وهيئة إنسانية [1] ولا غرو ، فإن هؤلاء الصغار هم أحباب الله ودليل على قدرته وهيمنته وقربه منا .

---

(١) نلاحظ أن المسلمين يسمون أبناءهم : عبدالله ، عبدالمعين ، عبدالستار ، عبدالرحمن ، عبدالقوى ، عبدالعظيم وهى كلها صفات مشتقة من الله . وكذلك المسيحيون عبدالملك ورزق الله ووهبه ... إلخ .

كل طفل ، بل كل كائن بشرى يجب أن ينظر إليه وأن يعامل على أنه فرد من أفراد البشرية ، وجوده ضرورى . ولذلك فإن الآباء والمربين مسؤولون أمام الله عن هذا الكائن ، لقد خلقه الله وأبدع خلقه فمن الخطأ أن نشوه هذا الخلق بأن نقف فى سبيل نموه الطبيعى الصحيح .

ويجب على المربين وعلى الآباء أن يراعوا العلاقة الوطيدة الواضحة بين الطفل وبين نمو البشرية حتى يكون هنالك انسجام بين مستلزمات نمو البشرية فى الماضى والحاضر والمستقبل . فالإنسان إذن مرتبط بالله وبالطبيعة وبالبشرية وتنطوى نفسه على : الوحدة (الممثلة فى الله) والاختلاف (الممثل فى الطبيعة) والفردية (الممثلة فى البشرية) ، وتنطوى نفسه كذلك على الماضى والحاضر والمستقبل .

ويجب أن ننظر إلى الطفل ، وإلى البشرية عامة ، ننظر إلى الطفل على أنه كائن فى طريق النمو وليس كائنا قد نما واكتمل نموه ، يجب علينا أن نرى فيه فردا يصعد سلم النمو متقدما باطراد ومتنقلا من مرحلة إلى أخرى صوب تحقيق هدفه . وبالمثل لايجب علينا أن ننظر إلى الإنسانية على أنها ثابتة قد كملت وأتمت نموها ، لأن فى ذلك معنى يوحى بأن الطفل فى نموه إنما هو صورة ميتة لاحياة فيها لمن سبقه من الأطفال . لا ، إن البشرية لم يكتمل نموها بعد ، فهى فى تقدم مطرد صوب الكمال ، والفرد يعمل فى هذا السبيل فهو يبنى للأجيال القادمة ، وهو بذلك ليس صورة ميتة لمن سبقه . ولن يتأتى للفرد ذلك إلا إذا كان نشطا حيا ، نشاطه ذاتى وحيويته تلقائية . وعليه أن يقدم هذا النشاط والحيوية بحرية ملموسة حتى تكون عبرة وأنموذجا لغيره ممن يعاصرونه أو حلقة فى سلسلة التطور بالنسبة لما سيلى من الأجيال. ففى كل طفل ، كفرد فى الإنسانية ، نجد روح الإنسانية ، ولكن كل واحد يفصح عنها بطريقة غير الطريقة التى يفصح بها غيره ، وكذلك فى كل طفل ما يبين أنه هبة الله ، ولكن كل واحد يعبر عن هذه الهبة بشكل خاص . ومهما اختلفت ألوان الافصاح وأصناف التعبير فهى تثبت أن فى الاختلاف وحدة .

وليحذر الآباء فإن وجود الطفل وهو غض صغير بينهم من شأنه أن يجعله يقتبس منهم بعض ألوان السلوك ، وما دام الآباء حراسا على هبة الله ، والله لايهب إلا كل جميل طيب ، فيجب أن يكون سلوكهم معقولا مقبولا حتى يؤدوا الأمانة التى فى أعناقهم خير أداء وحتى لايقتبس الطفل منهم ألوانا من السلوك لانرتضيها له .

ويصل الآباء إلى هذا الهدف إذا راعوا فى تربيتهم للطفل التمشى مع طبيعته وأطلقوا له الحرية للتعبير عن امكانياته وقواه واستعداداته . وليس معنى الحرية هنا اطلاق الحبل على الغارب بل نريد حرية فى حدود النظام ، نريد حرية دون فوضى ، وأقصد هنا اشرافا من جانب الكبير على الصغير . أريد إشرافا فيه المجال للإفصاح عن داخلية الطفل بحيث لايتطور الأمر إلى تدليل من شأنه أن ينشىء الطفل متواكلا لايعتمد على نفسه . فيمسك الطفل بيديه ، يقف على قدميه ويرى بعينيه ، أى يعرف كيف يستخدم أطرافه وحواسه استخداما نافعا مثمرا .

يبدأ الطفل حياته مستخدما «القوة» فهو يقبض على الشىء فى راحته بالقوة ويضرب الأرض بقدميه وهو مستلق بالقوة ، بل ويصيح بقوة ويبكى بحرقة . وبعد ذلك يلازم القوة عامل آخر هو «الطمأنينة» فنرى الابتسامة المشرقة تتلألأ على شفتيه عندما يحس بالدفء والراحة والحنان . وهكذا نجد الراحة جنبا إلى جنب مع القوة والعنف ، الابتسامة مع الدموع .

وتدل الابتسامات وعلامات الرضا والسرور على أن الطفل ينمو نموا طبيعيا (كما يريد الله وكما تريد الطبيعة) فيجب أن نشجعه على ذلك . أما الدموع والقوة والعنف من جانب الطفل فتدل على أن معاملتنا قد حادت عن الصواب وأن الطفل يناضل ويجاهد ضد ما يتعارض مع طبيعته ، فيجب أن نبحث عن الأسباب ونوقف مثل هذا الاجراء الجائر . ولعل أس الداء فى سوء التربية ، عامل الاهمال وعدم العناية بأمر الطفل ، فإن الاهمال أقصر طريق يوصل الطفل إلى كل ما هو سيىء شرير ، والطفل يحتاج إلى إرشاد وتوجيه فيجب ألا يحرم منهما .

ومما هو جدير بالذكر أن الطفل الصغير له قدرة على اكتشاف مواطن الضعف فى الكبير ، وهو بذلك يستغل هذه القدرة أيما استغلال ، فشدة حنان الكبير نقطة ضعف يعرف الطفل كيف يحسن استغلالها . ولذا فمن الخطأ البالغ أن يعمد الكبار ، تحت وطأة شعورهم بالحنان والعطف ، إلى سرعة تلبية نداء الصغار وتنفيذ مطالبهم ، مهما تكن تافهة . والواجب أن يترك الطفل لنفسه طالما أننا قد أبعدنا عن كل مثيرات الدموع والألم .

والطفل فى هذا الطور الأول كائن (يمتص) ما حوله ، هو عين كبيرة ترى كل شىء وتتأثر به وليس من السهل أن يمحى هذا التأثر بعد أن يكبر الطفل ، فجدير بنا أن نهيىء كل حسن جميل له فى حجرة نظيفة مرتبة ، - السلوك مقبول خلقى - الكلمات والعبارات صحيحة ليست نابية - معاملة الغير حسنة ... إلخ .

وسيكتشف الطفل أنه مرتبط بوالديه وأخوته وأن هؤلاء مرتبطون بوحدة أكبر هى الإنسانية عامة ، وأن هذه ذات ارتباط وثيق بالقوة الأبدية ، بالله . ويجب أن ينتهز الوالدان هذه الفرصة المبكرة ليبذرا فى نفس الطفل محبة الله والتدين فيدفعانه إلى شكر الله الذى أنعم عليهم بكل هذه النعم وبحمده وتسبيحه . وعلى الأم أن تراعى ذلك عندما تحمل الطفل إلى سريره ، وأن تكون إلى جانبه عندما يستيقظ فيفتح عينيه على ابتسامتها النقية وتتقبل منه ابتساماته العذبة ، وشكر الله هنا واجب . يجب على الطفل أن يحس من بواكير الطفولة بنعمة وقدرة الله ، ويجب أن يكون الوالدان مثيرين لهذا الاحساس .

إن تربية الطفل الصحيحة يجب أن تقوم على مراعاة طبيعة الطفل فى كل مرحلة من مراحل نموه ، ولكل مرحلة ميزات خاصة ، وكل مرحلة تعد الطفل للمرحلة التالية . ولا نستطيع أن نقول أن الطفل وصل إلى مرحلة الغلومة أو الشباب لأنه وصل إلى سن معين ، ولكن أقول إنه وصل إلى مرحلة الغلومة بعد أن يكون قد

أحسن استغلال فترة طفولته واكتسب من الخبرات القدر الكافى بحيث نما نموا طبيعيا دلت طبيعته وتصرفاته الحرة على أنه ترك طور الطفولة إلى دور الغلومة . ويخطىء الآباء والمربون خطأ فاحشا عندما يتوقعون من الطفل أن يسلك سلوك الشباب أو سلوك شخص مكتمل النمو ، وعليهم أن يعرفوا أن الطفل طفل فى كل شىء وليس رجلا صغيرا ، ولعل منشأ الخطأ أن المربين والآباء يتخطون المراحل المختلفة ويتطلبون من الطفل معايير للسلوك خاصة بمرحلة متأخرة عن مرحلة نموه الحالية .

العبرة إذن بالتمهل وعدم التسرع ، وليس من الحكمة فى شىء أن أدفع الطفل دفعا لأنماط من السلوك لاتتناسب مع سنه أو مرحلة نموه . بل ليس من العدل فى شىء أن أطلب من الطفل أن يسلك سلوك الشاب المكتمل النمو ، إن الزهرة تمر فى مراحل نموها حتى تستطيع فى النهاية أن تصل إلى الكمال .

ويجب على الإنسان أن يكشف فى سلوكه عن روحه ، روحه الالهية ، يكشف فى سلوكه عن قدرة الله تعالى . ألم ير إلى الزهرة والوردة فى الحديقة كيف أنها كست نفسها برداء من صنع الله . ألم ير إلى الطير كيف بنى عشه وأحس فيه بالأمن والدعة والراحة ، إن سلوك الطير والزهرة تعبير ظاهر عن قدرة الله الكائنة فى كل شىء .

ولذا فمن الضرورى أن يعتاد الطفل الصغير منذ أيامه الأولى العمل الخارجى ، يعتاد النشاط المثمر والعمل المنتج والابتكار . وهذا يدفعنا إلى القول بأن تربية الطفل يجب أن تشتمل على نواح شتى من الحركة ، ولابد أن يكون العمل مشتقا من بيئة وحياة الطفل . ويخطىء المربون الذين لايعطون العمل أهميته ، فإن مواد الدراسة البحتة النظرية من شأنها أن تبعث الخمول والكسل . بل يجب أن تكون ساعات العمل متساوية مع ساعات التحصيل العلمى

وثمة فكرة أخرى وهى أن تعليم مبادىء الدين دون أن نعمل بها من شأنه أن يجعل تعليم الدين غير مثمر ، بل تصبح تعاليمه مجرد أضغاث أحلام أو أوهام لا سبيل لها إلى عالم الحقيقة والواقع . كما أن مجرد أن يعمل الإنسان ويشتغل دون أن يراعى مبادىء وتعاليم الدين من شأنه أن ينحط به إلى مرتبة الحيوانات والبهائم ، بل يصبح مجرد آلة صماء .

إن المهم أن يعبر النشاط البشرى عن نفسه فى العمل مع مراعاة أوامر الدين وتعاليمه ، ويجب أيضا أن يتجه النشاط البشرى إلى مافيه الخير للذات نفسها ولغيرها كذلك .

وليس من شك فى أننا بعد هذا السرد الطويل يمكن أن نصل إلى حقيقة لا مراء فيها وهى أننا نجد فى الطفل الإنسان كمجموعة ، أى أن وحدة الإنسانية تظهر فى الطفولة ، وبذا تصبح فى الطفل كل بذور سلوك الإنسان فى المستقبل . فإذا ما استطعنا أن ندربه وأن نربيه تربية صحيحة فى طفولته من حيث هو فرد ومن حيث هو عضو فى جماعة أمكننا بذلك أن نضمن له حياة خيرة رغدة . ويجب عليه أن يدرك من الخبرات والتجارب الكثيرة أن العالم الخارجى يتصل به وأن حياته الداخلية متصلة بالعالم الخارجى ، وبهذا نسمح لقواه وميوله وحواسه وأطرافه أن تنمو النمو الطبيعى .

## الإنسان فى بواكير الطفولة

تلوح مظاهر العالم الخارجى للطفل فى بداية الأمر غامضة مختلطة حتى أنه يكاد يخال نفسه جزءا لايتجزأ منها ، ثم تبدر من الوالدين كلمات وعبارات تشير كلها إلى انفصال الطفل عن هذه المظاهر ، ويتدرج الأمر حتى يرى الطفل فى نفسه كائنا له كيان خاص منفصل عن العالم الخارجى بما فيه من أشياء . ثم يبدأ بعد ذلك يميز بين هذه الأشياء المختلفة ، والشىء عن الآخر .

ويمثل نمو الخبرة الشعورية لكل طفل ، من اللحظة التى يظهر فيها إلى الدنيا حتى يعرف ويشعر أنه يعيش فى أرض الله ، يمثل المراحل المهمة للتاريخ كما سردتها الكتب المقدسة . كما أن أعمال وأفعال الطفل فى المستقبل القريب ستمثل نمو وتطور التفكير الإنسانى ، ومراحل تقدم البشرية .

إننا قد عرفنا أن السلوك الخارجى للفرد يعبر عن إحساسه الداخلى ، ويدفع الشىء الخارجى الفرد إلى محاولة معرفة أصله وسببه وكنهه وعلاقاته بالأشياء الأخرى وبه نفسه . ويشجع الفرد على محاولة معرفة هذه الحقائق والأسرار أن الله وهبه من الحواس عددا وأنواعا تيسر له هذه العملية . ولكن الأشياء تعرف وتتضح بأضدادها ، فنحن نعرف صفات وطبائع الشىء أو الكائن إذا قورن بضده وبمضاهاته بغيره من الأشياء والكائنات . ونصل إلى الحقائق والأسرار الصحيحة إذا كانت المقارنة والمضاهاة واضحة متيسرة .

وهب الله الإنسان الحواس ، وهذه تستطيع أن تجعله يتفهم الأشياء الخارجية فى حالاتها الصلبة أو السائلة أو الغازية . وتظهر الأشياء للإنسان إما فى حالة حركة أو سكون ، ولكل حالة من حالات الصلابة والسيولة والغازية حاستان فى الجسم ، إحداهما تظهر جلية فى الحركة والأخرى فى السكون . فمثلا الاحساس بالحالة الغازية موزع بين العين والأذن ، والاحساس بالحالة السائلة موزع بين الشم والذوق ، والاحساس بالصلابة موزع بين اللمس والتحسس[1] .

ويرى فروبل أن أول الحواس التى يجب العناية بها هى حاسة السمع ثم حاسة الإبصار وهذه تهتدى بهدى حاسة السمع . وبهاتين الحاستين يمكن للآباء والمربين أن يوجدوا علاقة وثيقة بين الشىء المادى واسمه .

---

(١) يرى فروبل أن حاسة اللمس قاصرة على الاحساس بالنعومة والخشونة ، أما ما يسميه بالتحسس فيقصد منه حالة الجسم من حيث الحرارة ووجوده فعلا .

ويستتبع نمو الحواس المطرد استخدام الجسم استخداما منظما واستخدام الأطراف استخداما مثمرا . ويتأثر الطفل بالحاجات الخارجية . أى الأشياء المادية ، فإذا كانت ثابتة راسخة دعت الطفل إلى الثبات ، أما إذا كانت متحركة فإنها تدفعه حتما إلى الحركة ، فهو يحاول القبض عليها وامساكها ، وقد تكون بعيدة عنه فإما أن يقترب منها أو يقربها منه ، وفى هذا كله تدريب عملى للأطراف .

وفى هذه المرحلة يقف الطفل ، ووقوفه دليل على اتزانه ، اتزان الجسم والأطراف، وثمة ملاحظة هنا وهى أن الطفل فى هذه المرحلة يستخدم جسمه وحواسه وأطرافه رغبة فى مجرد الاستخدام (العمل والحركة) لاسعيا وراء نتيجة يبتغيها ، فإما أن هذه النتيجة لاتعنيه ألبتة أو أنه يجهلها . ولذلك نلاحظ على الأطفال فى هذه المرحلة شغفا باللعب بأطرافهم : أيديهم ، أصابعهم . شفاههم ، ألسنتهم ، أقدامهم ، بل بتعبيرات وجوههم وأعينهم . ويجب أن نحذر هنا ، فهذه الأعمال وهذا (اللعب) ليس تعبيرا عن الاحساس الداخلى بعد ، وسيصبح تعبيرا عن الاحساس الداخلى ، وتنفيسا عن الذات الباطنية فى المرحلة التالية . ومع ذلك يجب علينا أن نهتم بهذه الحركات الجسمية لئلا يعتاد الطفل بعضها الضار . ولعل من المثمر ألا نترك الأطفال الصغار مدة طويلة دون رعاية منا ، والمستحسن أن نمد الصغير بشىء مادى يشغل نفسه به . وليس من المفيد أن يكون فراش الطفل وثيرا جدا بل الأفضل أن يكون مريحا فى غير رفاهية ، ويجب ألا يغطى كل جسم الطفل عند النوم حتى نسمح للهواء الطلق النقى بأن يداعب جسمه الرقيق .

ولعل مما يجعل تفكير الطفل مرتبطا بالطبيعة أن يعلق إلى جانب سرير نومه قفص صغير فيه طائر حى [1] ، وهذا يضمن انشغال حواس الطفل وعقله فى شىء

(١) اننى أعجب لهذا الرأى الغريب وأرى فيه تناقضا لما يجاهر به فروبل فهو يدعو إلى الحرية والانطلاق وإذا به يسمح بتقييد حرية طائر حى ، فيه روح ومن صنع الله وخلقه . ويغلب أن فروبل فى أخريات أيامه نصح بأن يستبدل بالطير الحى نموذجا من الورق الملون .

مفيد معظم الوقت . ونلاحظ هنا أن كيان الطفل الداخلى ما زال غير منظم ، وإلى أن ينظم يستطيع الطفل أن يعبر فى سلوكه الخارجى عن إحساسه الداخلى .

وبعد أن يبدأ تعلم اللغة ، يبدأ بالتعبير الخارجى عن إحساسه الداخلى فيفصح عن نفسه فى الخارج بشكل دائم وباستخدام شىء مادى . فالداخل يتوق للتعبير عن نفسه خارجيا ، ولابد إذن من وحدة تربط الداخل بالخارج وعند البحث عن هذه الوحدة تبدأ تربية الإنسان الفعلية ، وهنا يتجه الاهتمام والعناية إلى العقل أكثر من الجسم .

وتعهد التربية فى هذه المرحلة البدائية إلى الأم ومعها الأب والأخوة والمحيطون بالطفل ، وكل هؤلاء يكونون وحدة كاملة تحيط بالطفل وتؤثر فيه فيتأثر بهم ولذا فمن الضرورى أن يكون كل ما يقع عليه نظر الطفل ويطرق أذنيه خلقى جميل مقبول صحيح . ويجب أن يربط اسم الشىء به وأن ينطق الاسم نطقا صحيحا واضحا لاتحوير فيه . ومادام الأمر كذلك فيجب أن تعرض الأشياء على الطفل بنظام وترتيب خاص حتى يستطيع أن يتعرف عليها فى هدوء ووضوح .

ويتمشى الكلام مع اللعب تمشيا واضحا ، فالطفل يتكلم إذا لعب ، ويتخيل الأشياء تسمع بل وتتكلم ، وسبب ذلك راجع إلى أنه عندما سمع لذاته الداخلية بالظهور والتنفيس ظن أن كل شىء على شاكلته فما دام هو يسمع فإذن كل شىء (كل جماد) يسمع ، مادام هو يتكلم فكل ما يحيط به قادر على ذلك .

ويعتبر اللعب فى هذه المرحلة النشاط الروحى النقى للإنسان ، ويمثل الحياة البشرية عامة ، لأنه يمنح الطفل السرور والمرح والحرية ، بل إنه يشتمل على كل منابع الخير .

فالطفل الذى يلعب بنشاط ولا ينفك يلعب حتى يصيبه الاجهاد فيكف ، هذا الطفل سيكون فى مستقبل حياته شخصا ذا إرادة وعزيمة يكافح ويستميت فى النضال

لخيره وخير غيره ، بل إن خير مظهر لهذه الفترة أن نرى طفلا قد فنى فى اللعب فناء تاما حتى استنفد طاقته ونشاطه فغلبه التعب واستسلم للكرى . فإلى الأمهات نرجو تشجيع الطفل على اللعب ولتقر قلوبكن وتهدأ نفوسكن عندما تجدن الأطفال وقد انهمكوا فى اللعب اللذيذ ، وإلى الآباء نرجو أن تدفعوا بأطفالكم إلى اللعب وهيئوا لهم المجال لذلك فهذا هو الطريق السلطانى إلى النمو الصحيح والمستقبل الباسم المشرق - ولتعلموا أن مصائر أبنائكم معلقة بهذه الفترة من حياتهم وآثارها ستستمر تعمل طوال حياتهم .

انتبهن أيتها الأمهات وانتبهوا أيها الآباء ، أطفالكم ودائع الله بين أيديكم ، أمانات غالية ودرر لاتقدر بمال فحافظوا عليها وهيئوا لها ما تريد وتحب : اللعب ففيه مفتاح العلاقات بين الطفل وغيره فى المستقبل وفيه يخط الطفل طريقه فى الحياة المرتقبة . ومع ذلك فلا يستطيع الطفل فى هذه المرحلة المبكرة أن يحكم أيهما أثمن فى نظره : الزهرة أم فرحه بها أم سرور والدته بها عندما يهديها إياها ؟ من يدرى ؟ ومن يستطيع تحليل أفراح الطفل وسروره ؟ .

أما عن ملابس الطفل فلا يجب أن تكون ضيقة تضايقه فى حركته ، ولا يصح أن تكون فضفاضة فى ترهل ، بل الأفضل أن تكون متسعة اتساعا معقولا يهيىء لجسمه فرصة النمو السليم الخالى من الضغط على العضلات . وكما يتأثر الجسم بالضيق من الملابس كذا يتأثر العقل وتتأثر الروح ، فالملابس الضيقة قيود توضع لقوى الطفل . ولايجب أن نجعل للون وتفصيل رداء الطفل غرضا فى ذاته من شأنه أن يحول تفكير الطفل إلى ملابسه عن أمور أخرى أكثر أهمية لنموه العقلى والخلقى ، ونحن لانريد طفلا ينشأ ميالا إلى التأنق والاهتمام بالمظهر الخارجى فحسب .

ولعلنا نستطيع أن نخرج من الحقائق السابقة إلى أن الطفل بين أسرته كائن ينمو ولكى يكون نموه صحيحا متزنا يجب أن نعمل على مراعاة ميوله واستعداداته

وألا نقف فى سبيله أو نكون عقبات تعترض هذا النمو . وأقرب المحتكين بالطفل فى هذه السنوات الأولى هى الأم ، وتقوم بدورها المقدس هنا بشكل غريزى ، دون تعلم . فلو أنها كانت على دراية بأن عملها إنما يتوقف عليه مستقبل هذا الكائن الصغير لتخلصنا من الكثير من نواحى القصور والخطأ فى تربيتنا للطفل .

تجلس الأم إلى طفلها وتمسك بيده فتسميها وإلى الأذن فتطلق عليها اسمها وهكذا مع بقية الأعضاء . ثم تجذب أنفه وتقبض كفها مع ابراز جزء صغير من أحد أصابعها وتريه للطفل وتقول «هذه أنفك» فيجزع الطفل ويهلع ثم يعمد إلى يده يتحسس بها أنفه حتى إذا ما اطمأن أنها مازالت فى موضعها بدت الابتسامة اللطيفة على شفتيه فى مرح ملائكى .

وشيئا فشيئا يتعلم الطفل أسماء كل أجزائه ووظائفها ويستطيع بعد ذلك أن ينفذ ما يلقى إليه من الأوامر مثل : «أرنى أسنانك» ، «عض أصبعك الأصغر» ، «ضع الحذاء فى قدمك اليمنى» . وهكذا يقدم حب الأم لابنها خدمة جليلة للطفل فيعرفه بنفسه وبما يحيط به ، ويبدأ هذا من الكل العام إلى الجزئى الخاص ومن القريب إلى البعيد .

ويتعلم الطفل منها كذلك خواص الأشياء ، فتمسك بالشمعة المضيئة وتقرب يد الطفل من اللهب وتقول «الشمعة تحرق» فيحس الطفل بالحرارة دون أن يصاب بأذى . وتضغط بحافة السكين على يده وهى تقول «السكين تقطع» ثم هى تعمد بعد ذلك إلى خطوة أكثر تقدما فتحذره من الشراب الساخن بعبارة بسيطة «الشراب ساخن ، إنه يحرقك» أو تحذره من اللعب بالأشياء الحادة فتقول «السكين حادة ، إنها تجرحك ، لاتقربها منك» ويستطيع الطفل بعد ذلك أن يعرف من تلقاء نفسه العلاقة الوطيدة بين كلمة «حاد» وكلمة «قطع أو شطر» .

ويجب على الأم منذ البداية أن تعمل على أن يحب الطفل من حوله فتمسك بيده الصغيرة وتضعها على رأس أخته مشفعة عملها بعبارة تبين أنه يحب أخته ، ثم تضع اسمه وسط أسماء أخرى مبينة أن كل شخص يحب الآخر ، وتعلمه عمليا كيف يتحسس وجه أبيه فى حب وشغف .

وطبيعى أن يتعامل الطفل مع ما يحيط به ، فإذا وجد مثلا قطعة من الطباشير فهو لايعرف شيئا عن فوائدها وسيخلط بينها وبين قطعة السكر مثلا ، ولكنه سيسر حتما عندما يحك بها سطحا فيجد أنها خطت خطا دائريا أو مستقيما ، ونجاحه هذا يشجعه على الاستمرار فى (اللعب) بها حتى يحيل السطح إلى عشرات الخطوط المستقيمة والمنحنية المتقابلة والمتقاطعة .

وعندما يلعب الطفل بالكرة أو يدفع أمامه شيئا يلاحظ أن هذا الشيء يتدحرج أمامه فإنما يرسم خطا على غرار الخطوط التى خطها بقطعة الطباشير وعندما (يرسم) الطفل شجرة مثلا نراه يضع نقطة على غصن منها ، والمفروض أن هذه النقطة تمثل طائرا ، فإذا ما طار الطائر مثل الطفل طيرانه واتجاهه بخط طويل . وفى الحق إن دنيا الخطوط تشوق الطفل جدا ، فترى وجهه يتهلل بشرا عندما يقوم والده فيرسم له حصانا أو إنسانا ، بل إنه يسر للرسم أكثر من رؤيته للشيء أو الكائن ذاته . ولو أننا راقبنا الطفل عندما يكلف برسم شيء معين فإننا نجده يتحسس أطرافه بيده أولا ثم يرسم شكله العام ملقيا الاهتمام (فى حالة المنضدة) إلى القوائم الأربعة التى تحفظ التوازن العام . ويجب علينا أن نشجع الطفل على الرسم بأن نمنحه الورق والأقلام وأن نوجه نظره إلى بعض أثاث الدار مما يسهل عليه رسمه .

إننا نجد فى تمثيل الأشياء بالرسم عاملا يوضح خصائصها ويثبت ذلك التوضيح فمثلا نعرف الطفل أن للإنسان قدمين ويدين وعينين وخمسة أصابع ، فنجده عندما يرسم إنسانا يقول ..... «وهذه يد ... وهذه يده الثانية ، وهذه العين اليمنى وهذه

العين اليسرى ... إلخ». وتستطيع الأم أن تنتهز الفرصة فتعلم الطفل مبادىء العد ويكون ذلك تدريجيا : فهى تعرض عليه تفاحة ، ثم تفاحة أخرى ، ثم تفاحة أخرى ، ثم تفاحة ثالثة ورابعة ، وتشفع عملية العرض بقولها : «تفاحة ، وتفاحة أخرى ، وتفاحة أيضا ... تفاحات كثيرة» ، وبعد ذلك تحذف كلمة «أخرى وأيضا» وتضع بدلهما الأرقام فتقول : «تفاحة واحدة ، تفاحتان (اثنين تفاحة) ، ثلاث تفاحات ، أربع تفاحات ...» . المرحلة التالية نستبعد فيها التمييز حتى الرقم الأخير ، بمعنى أن الطفل يقول : «واحد ، اثنين ، ثلاث ، أربع ، خمس تفاحات» . وفى المرحلة الأخيرة يكتفى الطفل (بعد الأم) بذكر الرقم مجردا من التمييز حتى فى الرقم الأخير .

قد يلوح للبعض أن هذه طريقة طويلة ، وقد يكون هذا صحيحا . ولكن لاشك أنها مفيدة منتجة ، والخطر ينشأ إذا حاولنا تعليم الطفل للعد دون ربط الرقم بشىء مادى . ولا شك أننا سمعنا أطفالا يخطئون فى العد فيقولون ... «واحد اثنين خمسة سبعة أربعة» وهذا نتيجة التعليم دون ربط الرقم بشىء حسى .

والطفل يمتص الكثير من الحقائق عند احتكاكه بعمل والده ، فابن الحداد يشاهد أباه وقد أمسك بقطعة الحديد ودسها فى النار مدة ثم أخرجها وهى جمرة ملتهبة شديدة الإحمرار ثم أخذها بالطرق حتى استوت فى شكل ابتغاه ثم غمسها فى الماء البارد وعندما لثمت وجهه بعثت صوتا لطيفا شفع (بدخان) جعل مقلتى الطفل تزدادان اتساعا وتتعاقب علامات الاستفهام على وجهه وتتزاحم الأسئلة العديدة على لسانه يريد كل أن يخرج باحثا عن اجابته . فهذه العمليات المتعاقبة تزيد من خبرات الطفل ، خبرات ومعلومات يتعلمها الطفل من منبتها الأصلى . (ويتكلم فروبل عن عدد كبير من المهن التى فيها الآباء الذين يصحبون صغارهم إلى مقر أعمالهم ، ويشرح الفوائد العلمية التى يجنيها الأطفال) .

فلا يجب على الآباء أن يكبتوا هذا الميل إلى الاستطلاع ، بل عليهم أن يتقبلوا أسئلة الأطفال قبولا حسنا وأن يجيبوا الأطفال بلغة يفهمونها وتتناسب مع عقولهم ومداركهم وألا يتغلغلوا فى النظريات التى لايستطيع عقل الطفل القاصر هضمها . ولا يجب عليه أن يجيبوا الأطفال تو اطلاقهم السؤال بل يحاولوا معاونة الطفل على كشف الحقيقة بنفسه إن أمكن عن طريق ملاحظته واستنتاجه لما رأى . ولعل خير هدف يجنى من مران الطفل وتربيته هو تعويده كيف يفكر ويتبصر فى الأمور . فالطفل الذى يعرف كيف يفكر هو الطفل المثالى الذى نريده .

إننا نعيب على أنفسنا أن كلامنا إنما هو أفكار استظهرناها وحفظناها ، أفكار لم تكن نتاج ملاحظتنا أو مجهود بذلناه ، فهى لذلك أفكار خامدة غير منتجة لأنها لم تنبع من الحياة . وكلامنا فيه الكثير من الشطط ، هو طبل أجوف لأننا أخذناه من غيرنا كما هو ، وليس لتجاربنا أثر فيه . هذه حالنا ، ولا يجب أن تكون حال أطفالنا ، لنعطهم مالم يعط لنا ولندربهم على مالم ندرب عليه .

يجب أن نحيا مع الأطفال حياة الأطفال حياة يسودها الهدوء والسلام والأمن بل والحكمة ، فإذا اندمجنا فى حياتهم سيتسرب الهدوء والسلام إلى نفوسنا ونحس بالطمأنينة والأمن يحيطان بنا ، وعندئذ نستشعر الحكمة ونحس بها .

والطفل ينمو ، وفى نموه يتعلم ، وها نحن قد منحناه الفرص الكثيرة ليزيد من خبراته ومعلوماته ، وعندما يستطيع التفريق بين الاسم والمسمى ، بين الكلمة والشىء الدال عليه ، بين الكلام والمتكلم ، وعندما تعبر الرموز والكتابة عن المعانى ، عندما يعرف الطفل هذا ، يكون هذا الكائن الحى قد ترك مرحلة الطفولة المبكرة وتخطى حدودها إلى دولة أخرى ، دولة الغلومة .

## خصائص الطفل فى مرحلة ماقبل المدرسة

تتميز هذه المرحلة بأن الطفل فيها يستطيع أن يعى ويستوعب الظواهر الخارجية ، وفيها يتعرف على خواص الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض ، ومعرفة الخواص والعلاقات تأتى عن طريق التربية .

وتبدو هذه المرحلة وفيها عامل جديد غير معهود ، الروضة ، وليس المقصود بها مطلقا حجرة دراسة ، أو حصصا ، أو كتبا مقررة ، أو مدرسين وما إلى ذلك . وتعمل الروضة على تعريف الطفل بالعالم الخارجى وما فيه ، وطبيعة الأشياء المادية وعلاقاتها بعضها ببعض والقوانين التى تهيمن عليها ، ولعل هدف (الروضة) الأول فى هذه المرحلة هو العمل على تقوية إرادة الطفل وتوجيهها إلى الخير وإلى الحياة الطاهرة النقية .

والإرادة هى النشاط العقلى ، وهذا النشاط يبدأ من نقطة محددة ويتجه فى اتجاه محدد صوب تحقيق غرض محدد . وهذا الاجراء المثلث يتم فى إتقان وانسجام مع طبيعة الإنسان .

ويجب أن يعلم الآباء والمربون هذه الحقيقة . ومن الضرورى أن تكون نقطة بداية النشاط العقلى حية عاملة دافقة ، وأن يكون الاتجاه بسيطا واضحا ، أما الغرض فيجب أن يكون ثابتا جليا جديرا بالمجهود الذى يبذله ويعمله الإنسان .

ولعلنا نذكر أن الطفل يتوق جدا إلى اللعب ويجد فيه مجالا للتنفيس عن ميوله واستعداداته فيستطيع أن يفصح خارجيا عما يحس به فى الداخل ، والطفل فى اللعب يضع نفسه وسط كل الأشياء ويقارن بين الشىء وبين نفسه . ولكن مجرد اللعب بالأشياء لايمنح الطفل الاحساس بالأمن والطمأنينية ، فيضاف إلى اللعب وجود الطفل وسط أفراد أسرته وعائلته . وإلى جانب الشعور بالأمن نجد شعورا آخر ، قد يكون

على نقيض ذلك الشعور ، وهو رغبة الطفل فى تقليد ما يراه بعينيه أو يسمعه بأذنيه. حقا إن هذا الميل وجد فى المرحلة السابقة ، ولكن تقليد الطفل كان من أجل النشاط . حبا فى التقليد ، أما فى هذه المرحلة فالطفل يقلد رغبة فى الوصول إلى نتيجة ، وقد تحولت (غريزة) النشاط عنده إلى (غريزة) التكوين . وإننا نرى الأطفال وقد مدوا أيديهم يساعدون آباءهم فى الأعمال الصعبة ، لا فى السهلة فحسب . فلا يجب حينئذ على الآباء أن يردعوا أبناءهم ويحولو دون مساعدتهم لهم ، وإلا وقفوا دون تيار سلوك طبيعى يجب أن يأخذ مجراه . إن كبت النزعات الداخلية للطفل والتى هى منبع النشاط التكوينى ، فيه ضرر بالغ لحياته فى المستقبل وخاصة إذا كان مصدر الكبت هى إرادة الوالدين وهما دائبا الاحتكاك بالطفل . ولعل فى استمرار الكبت عاملا قويا يؤدى حتما إلى خمول دائم وجمود لهذا النشاط . ولنا أن نتصور طفلا يغلى صدره كالمرجل بنزعات حيوية مشتعلة فتسرى إلى لسانه وأطرافه وكل جسمه فتبعث فيها الحركة ويقوم كل عضو بدوره وما كلف به ، وفجأة يجد الطفل قوة من الخارج تجبره على أن يوقف الحركة وكأنما أصيبت أعضاء جسمه بالشلل ، إنه سيحس حتما أن جسمه صار عبئا ثقيلا على روحه ونفسه الطلقة النشطة ، فأى جور أكثر من هذا ؟ .

أيها الآباء : أيها المربون ، حذار ! حذار ! اتركوا طريق الخطأ واسلكوا طريق الصواب ، أبناؤكم أمانة فى أعناقكم ، دعوهم ونشاطهم ، بل هيئوا لهم المجال لظهور هذا النشاط ، اياكم وكبتهم ووضع العراقيل أمامهم ، إنكم بذلك تجنون عليهم جناية عظمى ، مهدوا السبيل لهم وكونوا لهم لا عليهم . أيها الأب إذا جاءك طفلك مشمرا عن ساعده يعينك فى القيام بعمل ما فتبسم له ودعه يعاونك وإذا أخطأ فلا تنهره ولا تقل له قولا غليظا بل قومه وصححه .

يشغف الطفل باختبار قوته الجسمية فى كل فرصة تسنح له ، بل ويعمل على تنمية هذه القوة . فتراه يحمل شيئا من مكان لآخر ويحرك المقعد ويحاول انتزاع مسمار مثبت بالحائط أو دقه ، وقد يمسك بفأس صغيرة يحفر الأرض أو يملأ الحفرات بالطين والتراب . ونراه يتشبث بوالده عند خروجه عسى أن يكون خارج الدار ما يثير شغفه للعمل وثغرة يدلف منها للنشاط المشتعل فيه . وإذا رأى شيئا جديدا أو غريبا تتزاحم الأسئلة على شفتيه بسرعة غريبة ! لماذا ومتى وكيف وهل ..... ؟

يعمد الطفل كثيرا إلى التجوال هنا وهناك مستكشفا ومنقبا فى اهتمام واضح ، بل إنه يخاطر فى تنقله ، والمخاطرة تفتح آفاقا جديدة للمعرفة . ويستطيع هنا أن يستقرىء خواص الأشياء التى يصادفها بملاحظته لها فى حالتها الطبيعية ولا تسل عن سرور الطفل عندما يتسلق شجرة . ويرى فى هذا العمل حدثا خطيرا ، ويجد فيه اكتشافا لشىء بل أشياء جديدة . إنه سيرى من أعلى الشجرة منظرا لم يره من قبل ، سيجد نفس الشىء له منظر آخر يختلف عن منظره الذى رآه وهو على سطح الأرض، فهل من العدل حينئذ أن نصيح بالطفل طالبين منه أن ينزل ؟ لا ، إنه الآن فى أوج مجده فليتمتع به قليلا ! .

أرأيت إلى الطفل وقد تسلل بعيدا إلى الشقوق فى الجدران أو الأرض أو فى الأشجار يلتهم سيقانها بنظراته الفاحصة ، ويمد يديه الصغيرتين تتصيدان كل ما يجده صالحا للتصيد ، وقد يكون ذلك حشرة كبيرة أو طيرا أوقعه سوء الحظ بين يديه أو زهرة أو ثمرة . ثم يحمل الطفل هذا الاكتشاف العظيم إلى ذويه وهو يتيه فخرا وينتظر منهم كلمات الاعجاب والثناء ، ويبدأ يلقى الأسئلة : ما اسمها ؟ وكيف تأكل؟ ... ولكن الكلمات تقف حائرة على شفتيه عندما يصيح فيه الأب (أو الأم أو غيرهم) طالبا منه أن يرمى هذه القذارة من يده أو يوهمه بأنها كفيلة بالقضاء على حياته . ويرى الطفل الحشرة ويرى معها أيضا أملا عريضا ورغبة أكيدة فى المعرفة ويعود الطفل أدراجه حاسر الرأس كسير القلب ... ومازلنا مع كتاب تربية الإنسان لفروبل .

يعمل الطفل جاهدا فى سبيل تقليد مظاهر الطبيعة التى يجدها أمامه ، فإذا وجد شقا فى الأرض سكب فيه الماء رقراقا وقال عنه إنه نهر . وقد يقيم حاجزا صغيرا حول قطعة من الأرض ويدعى ملكيته لها ، بل قد يقيم عدة ألواح من الخشب متساندة ويسمى هذا كوخا يسكنه هو وذووه . وكثيرا ما يتعاون الطفل مع زميل له فى هذه العملية المهمة ويتخذ منه شريكا يتأبط ذراعه وينهمك معه فى حديث جدى عن خطوات العمل وكيف يكون .

(يتكلم فروبل بعد ذلك من عمل الأطفال فى معهده عندما يشتغلون بصناديق البناء ويشيدون من الكتل الخشبية أبنية متعددة : قصر أو كنيسة أو قلعة . ويخال الرائى الذى يقف على كرسى ليشاهد (القلعة) التى (وضعت) على الأرض أنه يقف على قمة جبل وقد استقرت على أرض الوادى قلعة . وقد يتحد عدد من الأطفال يضمون أبنيتهم بعضها إلى بعض ليقيموا مدينة . والمفروض أن يخطوا شوارع منظمة وأن يتركوا مساحات خالية حتى تضاهى المدينة الحقيقية ، ويستطرد فروبل فيصف شعور الطفل بالفرح والسرور عندما يرى أنه استطاع أن يزرع نباتا وأن الأرض أنبتت كأنما هذا من عمله ، وقد لاتتيسر الفرصة لإعطاء طفل قطعة أرض يزرعها فلنهبه حينئذ أصيصا من الزرع به نبات صغير) .

يمارس الطفل فى هذه الروضة ألعاب متنوعة : الجرى ، القفز ، اللعب بالكرة ، ألعاب المطاردة ، ألعاب العصابات ... إلخ . ويحس الطفل فى لعبه بسرور بالغ ، ولعل خيرا فى هذا ، لأن اللعب لايفيد قوته الجسمية فحسب ، بل فيه فوائد جمة لنموه العقلى والخلقى . يتعلم الطفل الولاء للمجموعة والخضوع للقوانين والأنظمة ، والتعاون فى سبيل مصلحة المجموعة ، وأنه ينجح لأنه فرد فى مجموعة ، ثم فيها أيضا الاعتماد على النفس والمثابرة والصبر والكفاح لتحقيق هدف ، فيها كل هذا وأكثر . وليذهب أحدنا إلى ملعب يلعب فيه الأطفال ليرى أى حياة يحيون وبأى روح

يلعبون ، إن هذه البراعم لاشك ستتفتح يوما على أرض الملعب وفى اللعب ، فى هذه المدرسة العظمى التى تعلم بالعمل فيؤتى التعليم أكله . ولذا نرجو أن تتجه عناية الحكومات إلى إنشاء ملاعب للصغار فهذا منتهى أملهم وغاية رجائهم .

ولكن الطفل لايستطيع أن يجد الملعب واللعب كما يريد ، فلا يحقق إذن آماله ورجاءه ولذلك ينتحى ناحية أخرى تكمل ذلك النقص فيصغى إلى القصص والحكايات الخرافية ويجد فيها أيضا شيئا يشتهيه ، وهو بث الحياة فى الجماد واعطاء الحيوان القدرة على التحدث والكلام بل والتفكير والتدبير . ويجد الطفل فى القصص الكثير من الحوادث والمعانى التى تهديء من نفسه وتوازن بين ما يريد وبين ما يريد الواقع ، وعدم التوازن من شأنه أن يسبب له بعض الضيق .

يرتاح الطفل جدا لهذه القصص ويفنى فى سماعها . وجدير بنا أن نطعم القصص ببعض الأغنيات (الترنيمات) البسيطة السهلة ذات النغم العذب الذى يستهوى الطفل ويلذ للطفل جدا أن يردد ما حفظه من الترنيمات عندما يجلس إلى نفسه وحيدا أو عندما يسير فى الطريق من الروضة إلى البيت . ويحس كأنها أنيس لطيف المعشر .

* * *

هذا ، وإذا تأملنا سلوك الطفل فى هذه المرحلة ، (وفى السابقة كذلك) وإذا لاحظنا معاملته للغير نصطدم بحقيقة أنه معاند مكابر صلب الرأى خداع لنفسه ولغيره متسلط على غيره ، وبالجملة فإنه يظهر بمظهر لا يبعث الطمأنينة والرضا فى نفس من يحيطون به . ولعل السبب فى ذلك راجع إلى أمرين :

(أ) إهمالنا التام لبعض جوانب نموه .

(ب) تدخلنا التعسفى فى نموه .

وهكذا نرى أن ما يظهر من الطفل من ظواهر لاترضاها لادخل له فيها لأن طبيعته خيرة ، وإنما سببها سوء تعارف من عنديانتنا ، موقف خاطىء من جانبنا أدى إلى كل هذا السلوك المرذول . وثمة سبب آخر لهذا السلوك هو جهل الطفل وعدم تقديره للعواقب تقديرا صحيحا ، فقد يعمل شيئا لايرى فيه أى بأس ومع ذلك فإن فيه ضررا لغيره ، ولنفسه وهنا لادخل لطبيعته فيما عمل . فمثلا يلقى الطفل بالحجارة متخذا نافذة زجاجية هدفا له ، وهو هنا لايدرى أى ضرر سيصيب أصحاب الدار ، عندما ترتطم الحجارة بالنافذة فتحطمها محدثة صوتا يفيق الطفل إلى نفسه ويولى هاربا ، فهو هنا كف عن العمل السيء عندما عرف مغبته . وللأسف الشديد ينظر البعض (من قصيرى النظر) إلى عمل الطفل هنا على أنه دليل الشر ، فيحكمون على أساس نتيجة العمل فحسب ولا يبحثون فى الدوافع والأسباب .

ألا ما أظلم الإنسان لأخيه الإنسان !!

## فى رياض الأطفال

### أولا : الدين

الغرض من الدين وتعليمه أن يفهم الإنسان علاقته بربه الذى خلقه حتى تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة أمن وسلام . ويعمل تعليم الدين فى سبيل هذه الغاية فيبصر الإنسان بالقوة الإلهية المهيمنة على الكون ويعرفه بأنه من الله وإليه يعود فيجب أن يتجه صوبه ويخضع لأوامره ونواهيه ، حتى لايتعارض سلوكه مع السنن الإلهية . ويؤدى تعليم الدين إلى إلمام الفرد بواجباته نحو ربه ونحو غيره من الناس ونحو نفسه . ويشعر الدين الفرد بأنه جزء من مجموعة ، متحد مع أفرادها وهذه الوحدة من إرادة الله الخالق الأعظم .

عندما يدرك الإنسان العلاقة بينه وبين الله وأنه منه وإليه يؤوب . عندما يحس بأنه لايستطيع إلا أن يكون معتمدا على الله يكل إليه أموره وأحواله ، حينئذ يرفع رأسه إلى السماء وينطق من أعماق قلبه بايمان مفعم «الله مولاى» .

وعلى الإنسان أن يقدر هذه الروح التى نفحه الله إياها وأنها سر حياته وكيانه، وهنا يستطيع أن يحقق الغرض من وجوده وخلقه ويستطيع أن يبلغ غاية مقصده فيحقق الوحدة مع المجموع ويعمل لصالح فرديته ويحسن العلاقة بينه وبين غيره ، هذا الهدف المثلث الجوانب هو أساس كل التربية الدينية ، بل هو مفتاح تربية الفرد تربية صحيحة فيوجه نظره إلى الوحدة والانسجام فى الطبيعة ويعمل لخيره ونفعه كفرد وكجزء فى مجموعة يتأثر بها وتتأثر به .

ولنعمل منذ البداية على أن يخاف الطفل من الله ، ومن الله فقط ، فلا يهاب الأوهام والخرافات التى تتسلط على عقول الكثيرين من الكبار فيخضعون لها

ويعيشون مقيدين بهذه الأغلال الخفية ، ثم يتجهون إليها لقضاء حوائجهم تاركين صاحب الأمر والنهى ومن بيده كل شيء .

علينا أن نتبع كل هذا حتى يحس الطفل منذ صغره بوجود الله وقدرته جل جلاله . وقد لايستطيع أن يصب إحساسه فى ألفاظ وتعبيرات تشرح بدقة وجهة نظره، ولكن يكفى أن يدرك ، وعندما يكبر يستطيع أن يعلن أفكاره فى جلاء ووضوح .

## ثانيا : مشاهد الطبيعة والرياضيات

تعبر الطبيعة عما يقول به الدين ، وتؤكد فى مظاهرها الخارجية ذلك الإعجاب الذى نحس به عندما نتأمل قدرة الله ، بل إنها تحقق ما يتطلبه الدين . فالطبيعة تفصح فى مظهرها الخارجى عن قدرة الله المتأصلة فيها والتى هى أساسها ومنبتها .

وطالما أن كل مشاهد الطبيعة متحدة فى أساسها فهى تكون وحدة وكلها خاضعة لقانون أبدى أزلى ، ونحن معشر البشر نخضع لهذا القانون أيضا ، فنحن والطبيعة ندين بالولاء والخضوع لقانون أزلى واحد ،

وسنقارن العلاقة بين الله والطبيعة بالعلاقة بين الفنان وعمله :

١- نجد أن فكرة وإحساس الفنان يظهران للعين الخبيرة فى إنتاجه ، كذلك تظهر القدرة الإلهية فى الطبيعة .

٢- نتاج عمل الفنان يثبت وجوده وكذلك الطبيعة وما فيها تثبت وجود الله .

٣- كما أن روح الفنان تكمن فى عمله ويمكن للعمل أن يعرف بها فإن قدرة الله تكمن فى الطبيعة وتتمكن ظواهرها من تعريف الخلق بها .

٤- لايشتمل عمل الفنان على جزء مادى من جسمه ، وكذلك لاتشتمل الطبيعة على جزء مادى من (جسم الله) ، بل تتجلى قدرة الله فى الطبيعة لمساعدتها على البقاء والنمو .

ويأمل الفنان أن تكون صورته أو التمثال الذى صنعه من نصيب شخص يقدره ويقدر المجهود الذى بذل فيه والفن الذى اشتمل عليه .

ومهما درس الأطفال أنواعا عدة من النباتات وشاهدوا الاختلافات الظاهرية واضحة ، فإنهم لاشك سيجدون عاملا مشتركا بينها ، ذلك هو الطاقة الحيوية . ولابد للطاقة الحيوية من أن تنبع من طاقة حيوية وتنتج حياة . وهذه الطاقة تلقائية بالضرورة فتتجه إلى كل الجهات وتتناسب قوتها مع القوة التى تعارضها بحيث تعمل على حفظ وحماية الكائن . وإلى جانب هذه القوة الحيوية نجد الجسم المادى الذى يتخذ أشكالا مختلفة متباينة . وهذا الجسم المادى مرتبط ومتحد مع الطاقة الحيوية ولا يمكن فصلها . وعندما تنبعث الطاقة تتجه فى اتجاهات مختلفة مكونة (مع الأجسام المادية) شكلا دائريا كالكرة . فالشكل الكروى هو الشكل البدائى والنهائى لكل الأشياء فى الطبيعة كالشمس والكواكب .

يجب إذن أن يرى الطفل الطبيعة منذ البداية على أنها كل حى عظيم خلقه الله ويجب أن يراها كما هى وأن يطمئن إلى أنها تنمو من الداخل ، من نفسها . ويسأل الأطفال أسئلة كثيرة تدور كلها حول مظاهر الطبيعة . ولو حللت هذه الأسئلة لخرجنا منها برغبة الطفل فى الكشف عن الوحدة الموجودة بين كل هذه المظاهر المختلفة . ومن الضرورى أن نربط الحقائق بعضها ببعض حتى يحس الطفل بالوحدة واضحة جلية . وجدير بنا أن نوجه نظر الطفل إلى تأثير الشمس فى الكائنات وتأثر الكائنات بها كما يتأثر الطفل الصغير بحنان وعطف الوالدين ، فالوالدان ضروريان للطفل وكذا الشمس بالنسبة للكائنات الحية .

علينا أن نمد الأطفال بكل الفرص التى تمكنهم من ملاحظة التشابه والاختلاف وعليهم أن يدرسوا ذلك ، ولا يجب أن تقف المصطلحات العلمية أو الأسماء الفنية عقبة فى سبيل عملنا ، فالمهم أن يلاحظ الطفل ثم يستنبط ويستخرج الملاحظات

بنفسه . دع أسئلة الأطفال توجهك فإذا فشلت فى الإجابة عن سؤال ، وكثيرا ما يسأل الأطفال أسئلة لايمكننا الاجابة عنها ، فقارن نفسك بما حولك وكلف طفلك بتقليدك وفى الغالب ستصلان إلى الإجابة .

إن معرفة الطبيعة والالمام بالغرض من.أى شىء يبدأ بفهم علاقاته مع ما يحيط به ، فلابد للطفل إذن من دراسة الأشياء فى علاقاتها الطبيعية بعضها ببعض حتى يستطيع أن يدرك حقيقتها ، فمثلا يبدأ الدرس بسؤال الأطفال عما يرونه فى الحجرة ومم تتكون الحجرة (جدران وسقف وأرضية ... إلخ) ثم يسأل بعد ذلك عن علاقة هذه الحجرة بحجرات البيت (أو المدرسة) ، وهل كل المنازل بهذا الشكل ، ثم فوائد المنازل (وقد تتكلم هنا عن أساس البيت وارتباط قطع الأساس بعضها ببعض) . ويتقدم الطفل فيبين أنواع الأبنية وكيف أن ذلك التنوع ضرورى ولازم لأن لكل بناء وظيفته وأن القرية تشتمل على أنواع عدة من البنايات . ويجدر بنا هنا ذكر حقيقة لامراء فيها وهى أن الجغرافيا ومشاهد الطبيعة يجب أن تكون بدايتها بالبيئة المحلية.

## ثالثا : اللغة

تعمل اللغة على توضيح الوحدة وسط الاختلاف وكشف الرابطة الداخلية التى تربط كل الأشياء . فالدين والطبيعة واللغة ، بالرغم من وجود العلاقات المختلفة بينها ، لها غرض واحد هو توضيح الداخل عن طريق المظاهر الخارجية ثم خلق الانسجام بين الداخلى والخارجى . ولا شك أن هذه المواد الثلاث : الدين والطبيعة واللغة ، تعمل لخير الفرد حتى يوازن بين مطالبه وميوله وبين سلوكه الخارجى وقيود المجتمع . ولهذا فلابد أن تدرس باتساق وانسجام فلا ندرس مادتين ونترك الثالثة .

ننظر إلى اللغة على أنها إفصاح عن الداخل ، فاللغة تعبر عن دخيلة الشخص . ودور اللغة خطير لأن دخيلة الشخص فى حركة دائبة النشاط والحيوية ، وهى بذلك تعبر عن تعامله .

لكن التعبير الخارجى يمضى بمضى لحظته ، وقد يذكر الفرد فكرة أو حركة لوقت معين ثم تحتويها زوايا النسيان ، وهنا هدى الله الإنسان إلى الكتابة كى يستطيع بها أن يحافظ على خبراته بل ويستطيع أن يحتفظ بخبرات الآخرين أيضا فلا تتحكم أمام سلطان النسيان . وعبر الإنسان قديما عن أفكاره فى كتابة كانت الصور عمادها ثم استطاع بعد لأى أن يستبدلها بالحروف الهجائية . ولما كانت الكتابة هى التعبير (التحريري) عن دخيلة الإنسان ، فيجب على المعلمين أن يزودوا أطفالهم بالأفكار والمعانى والإحساسات النبيلة .

يتعلم الإنسان القراءة والكتابة ، وبهذين السلاحين يتفوق على جميع الكائنات الحية ويقترب من تحقيق غرضه ، وعن طريقهما يكون الفرد لنفسه شخصية تختلف عن شخصيات الآخرين . ويعلم الفرد مبادىء القراءة والكتابة فى الروضة وهى ذلك المكان الذى أعد وهيىء ليساعد الطفل فى الوصول إلى هدفه .

## رابعا : الفن

بينا أن اللغة تعبير خارجى عن الداخل ، ولكن ذلك التعبير يشوبه عنصر نقص فهو ليس كاملا شاملا ، وهنا يأتى دور الفن ليكمل هذا النقص . وإذا كانت كل الأفكار البشرية متصلة مترابطة فإننا نجد أن الفن وطيد الصلة بالرياضيات وباللغة وبالطبيعة وكذلك بالدين . ومع ذلك فعندما نحكم على الإنتاج الفنى نترك كل هذه العلاقات ونركز أنفسنا فى نظرتنا إلى الفن على أنه الوحدة النهائية التى يعبر فيها عن الداخل . ويجب أن نذكر أن التعبير عن الحياة الداخلية للفرد فى إنتاجه الفنى تبعا للمادة المستعملة .

هذه المادة قد تكون قابلة لإصدار نغم ، وقد تكون خطوطا مرئية وأسطحا مختلفة وألوانا عدة . فالفن الذى يظهر على شكل أنغام هو الموسيقى والأغانى ، أما

ذلك الذى يظهر فى الألوان فهو التلوين ، وهذا الذى تستعمل فيه مواد مرنة قابلة للتشكل يسمى بعمل النماذج . والنوعان الأخيران مرتبطان بالرسم وهو تعبير عن طريق الخطوط .

ويجدر بنا أن تهتم الروضة الأولى بالغناء والرسم والتكوين وعمل النماذج ، وليس الغرض خلق فنانين ولكن توضيح ناحية من نواحى النشاط البشرى وتقدير الجمال فى الطبيعة .

## فلسفة فروبل التربوية

سيطرت فكرتان على تفكير فروبل التربوى هما : مثالية غامضة وحب أكيد للأطفال والطفولة .

ومما لاجدال فيه أن فترة الطفولة تثير الشوق والفهم ، ويرى فروبل أنه لايوجد شىء أمتع من الاتصال القريب بالأطفال . ويجد الكبار متعة ولذة عندما يراقبون سلوك الأطفال الساذج الطريف ولذا فإن الكبير الذى لايتأثر بهذا السلوك ننظر إليه على أنه شاذ .

وفرق واضح بين أن نمضى ساعة بين الأطفال وبين أن نكرس كل حياتنا لمراقبتهم وتعليمهم فنصحح الأخطاء ونرشد إلى الصواب ونبث أطيب العادات . وقد اتهم الناس من يتعاملون مع الأطفال تهمة خطيرة فاستنتجوا أن من يتعامل مع الصغار يضيق أفقه ويحدد تفكيره ونظرته إلى الحياة ، وقد أخافت هذه الفكرة الكثيرين ممن يتعاملون معهم ، غير أن تعاليم وفلسفة فروبل قضت على هذه التهمة لأن آراءه ارتفعت بالمربين إلى مستوى أرقى من مجرد النزول إلى الطفل بل إنها قد سهلت عليهم الكثير من المشاكل التى تصادفهم فى عملهم النبيل .

يتكلم فروبل عن التطور أو النمو وكيفية تكوينه ، وهو لايقصد النمو من حيث الكم أو الزيادة العددية بل الزيادة فى تعقد التكوين والتحسن فى القوة والمقدرة والمهارة ، وفى تنوع مظاهر الوظائف الطبيعية وكيف أن هذه تنتج عن طريق الممارسة والمران ، مران الشىء نفسه ، أو ما نطلق عليه اسم النشاط الذاتى ، ويصر فروبل على أن يحدد للممارسة وقتا محددا بحيث تنسجم مع طبيعة الشىء .

ويرى فروبل أن الحياة والنمو إن هما إلا تطور تقدمى من الدركات السفلى إلى العليا للكائن الحى ، وأن نمو الأفراد يمثل إلى حد بعيد نمو الجماعة الإنسانية فى مراحل التاريخ ، وأن المراس الوظيفى للكائن من شأنه أن يجعل عملية النمو تستمر ، كما أن أنعدام المراس من شأنه أن يوقفها أو يحطمها . ويرى تشابها فى نمو الكائنات الحية مما دعاه إلى القول بأنها خاضعة كلها لقانون أزلى أبدى يهيمن عليها وهو خالقها .

وعندما تكلم عن الصغار وصفهم بأنهم طبيعيون بسطاء وجاهر بأن الطبيعة البشرية منزهة عن الشر وأنها لاتحيد عن جادة الصواب . وقد دفعه هذا الاعتقاد إلى الجهر بضرورة استغلال قدرات الطفل الطبيعية وامكانياته فيدرس المواد المختلفة ليتأتى له النمو المتزن ، بدليل أنه صرح بأن تعليم الطفل الرسم لن يخلق منه فنانا وحفظه بعض الأغانى الخفيفة والأناشيد لن يخلق منه موسيقيا ، ولكن هدفنا الأسمى إتاحة الفرصة للطفل لينمو نموا طبيعيا هادئا كما أراده الله . ولهذا فلا يجب علينا أن نحمل الطفل على اتيان عمل لم ينبع منه تلقائيا أو وجدنا تبرما منه واحجاما عنه لأنه ضد طبيعته وبعيد عن فطرته .

ولايتفق فروبل مع روسو الذى قال بابعاد الطفل عن غيره كما أنه لايسمح بترك الطفل لنفسه وسط غيره من الأطفال ، ولكنه يؤكد ضرورة الإشراف عليه والتأكد من أنه يوجد وسط ظروف ملائمة مناسبة . أما هؤلاء الذين يشرفون عليه فلا بد أن تكون لهم من المعلومات والخبرات ما يسمح لهم بتوجيه الصغار ومساعدتهم . بهذا

يعمل فروبل على تحرير الطفل من النزعات الشريرة ومواطن الزلل ، وبعده ليكون مرشد نفسه ويكون ذلك بتحريره منذ حداثته من الخضوع للقوانين الجائرة الخاطئة والقيادة السقيمة العقيمة .

ويتكلم فروبل فى كتابه «تربية الإنسان» عن هذا القانون الأبدى الأزلى الذى يتحكم فى كل شىء ويرى أنه يعبر عن نفسه فى مظهرين : مظهر خارجى وهو الطبيعة ومظهر داخلى هو الروح . وهو يرى أن الله يسيطر على كل شىء وتتشكل مظاهر الطبيعة بأمره وتخضع له وتوجد بإذنه فهو فيها وهى منه ، يخلقها كيف شاء ولكن الطبيعة ليست جسم الله . ويوجد عامل مشترك بين كل الكائنات هو ذلك القانون الإلهى وهو أساس حياتها أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم فردية الشىء . وفردية الشىء أو فردية الشخص هى التى نرنو إليها بأبصارنا ساعين كى تعبر عن نفسها لكى تنمو نموا صحيحا ، ويكون ذلك عن طريق مظاهر سلوكها الخارجى ونشاطها الحر الذى تعبر فيه عن مكنوناتها وما يعتمل فيها .

فعندما أقول اننى أربى شخصا ، فمعنى ذلك : أننى أوقظ هذا الشخص من سباته وأعامله على أنه كائن يفكر ذكى يشعر بما يعمل ، وأنا أهيىء له الفرص المواتية لينفذ ما يريد وما تمليه عليه مشاعره الداخلية دون أن أتعرض له بما يحد من نشاطه الحر أو أكبت فيه هذه الرغبة التلقائية الملحة .

فبالتربية والتعليم يستطيع الإنسان الافصاح عن نفسه لغير نفسه وإلى مسالمة الطبيعة وتأكيد المودة بينه وبين الله . ويرفعه التعليم إلى درجة يستطيع فيها أن يعرف نفسه وغيره ويرفعه إلى حياة نقية طاهرة منزهة عن أدران الرذيلة .

وطالما أن التربية تسمح لإمكانات الطفل بالتعبير ولقدراته بالإفصاح عن نفسها وتهيىء له البيئة والظروف المناسبة للنمو الصحيح دون إلقاء العثرات والعقبات فى

الطريق ، فإنه مما لاشك فيه أن اختلاف الأطفال فى مستويات تحصيلهم العلمى مرده إلى عوامل داخلية فطرية لا اتصال لها بالتربية ذاتها . هذه الفروق الموجودة بين الأطفال واضحة لدرجة أننا نستطيع بغير كثير من العناء ملاحظتها عند الصغار . ولذا فمن الواجب أن نعامل كل طفل حسب امكاناته فلا يصبغ الأطفال كلهم بصبغة واحدة ويخضعون لظروف متماثلة وتعليم واحد لأن الاختلاف بين الأفراد عامل فعال ، آثاره عنيفة قوية لا يمكن تجاهلها أو التغاضى عنها ، وهذا الاختلاف ليس صناعيا أو مكتسبا يمكن تغييره أو محوه بل هو أساسى فطرى عميق الجذور لايمكن اجتثاثه .

ويقول فروبل إن الطفل طفل لا لأنه فى سن معين أو لأنه لم يصل بعد إلى سن معين ، ولكن لأنه يحيا بصدق بما تمليه عليه نظرته وما تتطلبه طبيعته (نفسه وجسمه وعقله) ، والشاب شاب لأنه عاش بنفس الصدق فى طفولته حتى استنفد مطالبها وانتقل إلى مرحلة أخرى تتطلب أشياء أخرى . والرجل رجل لا لأنه وصل إلى سن معين فاستحق هذا النعت ولكن لأن ما تطلبته فطرته وطبيعته فى طفولته وحداثته ومراهقته وشبابه قد حصلت عليه فعلا وهى الآن تتطلب منه معايير أخرى ومستويات خاصة جديرة بمرحلة الرجولة واكتمال النمو .

وليست هذه المراحل منفصلة بعضها عن بعض ولكنها تكون نموا منسجما متصلا فى ارتباط بديع يؤدى كل طور إلى الذى يليه وتعتمد كل مرحلة على ما سبقها من المراحل . وهذا الاتصال والترابط بين أطوار النمو المختلفة له صدى فى المواد التى يدرسها الطفل ، فإن كل مادة دراسية لها معنى وقيمة بالنسبة لغيرها من المواد . ويوجد هنالك ارتباط آخر بين مختلف أنواع النشاط النفسى كالإدراك والإحساس والإرادة ، وهذا الترابط يسمح لها بأن تعمل ككل منسجم منظم .

لدينا إذن نوعان من الترابط :

**(أ) المواد الدراسية .**

## (ب) مختلف أنواع النشاط النفسى .

سنطلق على النوع الأول اسم «الترابط الخارجى» ، وعلى الثانى اسم «الترابط الداخلى» . وعلينا هنا أن نعمل على الربط بين الخارجى والداخلى . فإن ما يعرفه الطفل فعلا وأصبح أمرا داخليا يجب أن يرتبط بما يتعلمه أى بما هو خارجى، أى ترتبط رغبته (الداخلية) للنشاط وأفكاره وإحساساته وإرادته بما يعمله خارجيا وهذا ما يعبر عنه فروبل بعبارة «جعل الداخلى خارجيا» أو «الخلق والابتكار».

وينصب لب نظرية فروبل على أن الطفل منذ وجوده فى العالم يخضع لقوى الطبيعة والكائنات الحية وغير الحية والبشرية عموما . وتسيطر وتوجه قدرة الله هذه القوى ، ويبلغ ظهورها أقصاه فى البشرية . وجسم الطفل يربطه بالكائنات والطبيعة والبشرية ، أما قلبه وعقله فيربطانه ويجعلانه عضوا فى الجسم الأكبر وهو الإنسانية فى الماضى والحاضر والمستقبل . ويعتمد كيانه كله وروحه على الله ومنه يستمد قوته ونشاطه وحيويته . وما دام الأمر كذلك فيجب على الطفل أن ينمو تحت تأثير الطبيعة، ففيها سيجد الظروف الملائمة التى تمكنه من تعلم القوانين التى تتحكم فى كل الكائنات، ويرى أنها تجاهد للوصول إلى درجة الكمال ويلم بالقوانين التى تؤثر فيه، ثم يستنتج عن طريق عمليات الاستقراء الكثيرة أن القوانين الموجودة فى الطبيعة والتى تتحكم فيه أيضا يمكن أن ترجع كلها فى مختلف مظاهرها إلى قانون واحد . فالطفل بذلك يضم - بادراك واسع وبصيرة عريضة - ما يلوح لنا أنه لا ارتباط فيه أو أنه متعارض . فعندما يحنو الطفل على الطيور والدواجن يضع بذلك البذور الأولى للمستقبل ، حين يأتى الوقت الذى يحنو فيه على الكائنات البشرية ويشعر أن أفرادها أخوته . كما أنه بدراسته لمظاهر الطبيعة المختلفة كما هى وتقليده لبعض عناصرها سيصل إلى محبة الله وأنه الخالق الأعظم القادر المتحكم المهيمن على الطبيعة وما فيها ، فهو حينئذ يستنشق نسيم السلام الذى يسود الطبيعة وكل ما يتصل بها قبل أن تلج جلبة الدنيا وضوضاؤها أبواب نفسه وقبل أن تعرف الرذيلة طريقا إليه .

ويرى فروبل أن الوسائل التى تستخدمها الطبيعة لتنمية جسم الطفل هى تحريك أعضائه ، ولذا فهو ينصح بأن تمرن الأطراف دائما ولكن فى غير إسراف مقيت أو افراط مجهد . ولابد أن يقوم بهذا التمرين شخص له خبرة ودراية بتركيبها التشريحى وطريقة حركتها . ولعل أهم أداة عند الإنسان هى اليد ، فلنعمل إذن على أن تستخدم وأن تمرن حاسة اللمس بعناية حتى تؤتى ما ينتظر منها ، ويتدرج فروبل بعد ذلك قائلا أن أهم غرائز الطفولة هى غريزة الحل والتركيب وهى تقليد فى بدايتها ثم تتطور إلى شىء من الإبداع والابتكار ولو أن هذا ليس نقيا تماما . وما دام الأمر كذلك فلنعمل على تشجيع هذه الغريزة وتهيئة المجال لها للتنفيس والظهور فى الصور التى ترضينا وترضيه . أما العين فإنها تسر فى البداية عندما ترى الألوان ويتبع ذلك ابتهاج لرؤية الأشكال ، ولذا فيجب أن نعتنى أولا بالألوان ثم بالأشكال . وتأتى بعد ذلك الأذن ومجال ابتهاجها هو الأصوات ، ولذا فيجب أن نساعد حاسة السمع على النمو عن طريق الأغانى والموسيقى .

ونلاحظ رغبة ملحة من الطفل لمعرفة الأشياء وحب الاطلاع عليها ، وهذه الرغبة ككل حاجة طبيعية يجب أن تشجع وألا تخمد ، فنسمح له بالقاء الأسئلة ويجب أن نحترس هنا ، فلا بد من التأكد من أن هذه النزعة تلقائية وليست صناعية مفتعلة ناتجة عن دوافع خارجية لا اتصال لها بطبيعته الفطرية . ويجب أن نضع أمام أنظاره أشياء بينها أوجه تشابه أو أوجه اختلاف حتى يستطيع الوصول إلى أسس التشابه أو عناصر الاختلاف ، والواجب علينا أن نعاونه على المقارنة وخاصة إذا كانت فى ظروفها الطبيعية لأننا بذلك ننمى قدرته على الانتباه والملاحظة .

وقد أدت ملاحظة فروبل ودراسته لطبيعة الطفل إلى الخروج بالسمات المميزة للطفولة ، وهذه جذبت انتباهه فعكف على دراستها . هذه السمات المميزة تلخص فى رغبة الطفل الفطرية للنشاط أو ما تواطأنا على تسميته باسم «اللعب» وينصح فروبل المربين باستخدام اللعب فى التعليم ، وكانت هذه السمات المميزة هى الوحى الذى ألهمه الفكرة الكبرى ، فضرب هذا العبقرى ضربته الرائعة التى تمخضت عن تنظيم اللعب فى رياض الأطفال . ونستطيع عن طريق استخدام اللعب أن نبث فى الطفل المبادىء والأفكار التعليمية فى أشكالها البدائية البسيطة فيمكننا أن نهيىء له لعبا للأطراف أو أغانى ساذجة أو ألعابا للحل والتركيب أو المقارنة .

وقد نجح فروبل نجاحا بعيد الشأن فى جمع هذه اللعب وتنظيمها تنظيما يدل على مهارة كبيرة ، وأطلق على هذه الألعاب اسم «الهدايا» . وينصح فروبل باختيار الألعاب والأغانى بعناية قبل أن تعرض على الأطفال . وأضاف فروبل إلى ذلك عمل الأطفال فى فلاحة البساتين ، وقد جعلت الطبيعة منه عملا مثيرا مثمرا . ويرى أن عمل الأطفال متعاونين يقربهم بعضهم من بعض ويؤدى إلى تآخيهم وتحابهم ، ومن حبهم لأقرانهم ينمو حبهم لله فلا يعصون له أمرا .

# بعض کتابات فروبل

- F. Froebel on H. Pestalozzi : Letter to the princesse- regen. of Schwarzburg-Rudolstadt. (Yverdun, 1809) .
- To our German People (Written to Keilhau, 1820) .
- Principles, Aim and Inner Life of the Universal German Educational institute at keilhau (1821) .
- On German Education (1822).
- Report Continued on the Universal German Educational Institute at keilhau (With a plan of study for the year 1828-1829) .
- Christmas Festivals at the Institute in Keilhau (1816-24) .
- The Education of Man, (Keilhau 1826) .
- Letter to the Duke of Meiningen, (1827) .
- Letter to Krause , (1828) .
- The Family Journal of Education (Keilhau 1829) .
- Plan Drawn up by Froebel and His Friends for the Institute at Helba, (1829) .
- The New year, 1836, Demands a Renewal of Life, (1836) .

- Sunday Journal, (1838) .

- Mutter and Kose-Lieder (Songs for Mothers and Nursery Songs 1843) .

- The Weekly journal of Education, (1850) .

- A Journal for Friedrich Froebel's Educational Aims, (1951-52) .